

« معالم الإسلام »

دراسة تحليلية لفصول الكتاب

(بقلم الدكتور محمد رجب الیومی)

- ١ -

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد عن الأستاذ محمد فريد وجدی ^(١) :

« هو فريد عصره غير مدافع ، وتلك كلمة مألوفة طالت ألفتها حتى رثت وبلیت ، وأصبحت حروفاً بغير معنى ، ولطالما قيلت عن عشرات من حملة الأقلام في عصر واحد ، كلهم فريد عصره ، وكلهم واحدٌ من جماعة تعدّ بالعشرات ، فلا معنى لها في باب العدد ، ولا في باب الصفات ، ولا سيما صفات الرجحان والامتياز ، إلا أننا نقولها اليوم عن فريد وجدی لنعيد إليها معناها الذي يصدق على الصفة حرفاً حرفاً ، ولا ينحرف عنها كثيراً ولا قليلاً ، حتى في لغة المجاز .

فقد عرفنا في عصره طائفةً غير قليلة من حملة الأقلام ، ورجال الحياة العامة ، فلم نعرف أحداً منهم يماثله في طابعه الذي تفرّد به في حياته الخاصة والعامة ، وفي خلقه أو تفكيره ، وفي معيشته اليومية أو معيشته الروحية . وأوجز ما يقال عنه في هذه الحالات جميعها أنه لم يُخلق في عصره من يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود في سيرته ، كما يتقاربان في سيرة هذا الرجل الفريد ! نعم الفريد حتى في لغة الجناس ، لأن اسمه فريد ، والفريد حتى في عزله ، لأنه كان في عزلة النساء والرهبان ، عليمًا غاية العلم بالتحليل والتحريم .

ثم قال الأستاذ العقاد في ختام حديثه :

« رحم الله ذلك القلب الطهور ، وذلك الروح الكريم ، وذلك الخلق الفريد ، إن يكن اليوم لا يُذكر حقّ ذكره فما هو بالقصور ولا بالخمول ، ولكنه يعيش في عزلة من دُنیا التاريخ ، كما عاش أيامه في عزلة من دُنیا الحياة .

(١) رجال عرفهم - للأستاذ العقاد ص ١٤٧ - المكتبة المصرية بيروت .

ومن يعرف طابع العقاد في الكتابة عن المعاصرين ، يدرك كم كان الكاتب الكبير يمتلئ شعورا بعظمة الأستاذ محمد فريد وجدى ، إذ أن العقاد حين يتحدث عن عالم من علماء الفكر ممن شهدهم في زمنه . يضيف إلى مآثره ما يراه من نقداً علمية أو خلقية تتعلق به ، وهو في ذلك يرمى حق التاريخ من ناحية ، ويعرف أن كلامه يوزن وزناً بالقسطاس المستقيم فلا يحيل به إلى الزيادة أو النقصان ، وحين كتب عن الأستاذ وجدى بهرته أنه لم يجذ في عصره من يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود في سيرته كما يتقاربان في سيرة الرجل الفريد ، كما صعب على العقاد أن يذكر الناس من أهل الفكر من لم يبلغوا معشار ما بلغه الأستاذ وجدى في عالم المعرفة الأصيلة ، ثم يعيش في عزلة من دنيا التاريخ كما عاش أيامه في عزلة الحياة ! وهى عجيبة حقاً ، ولكن تحليلها قريب ملحوظ ، فصاحب القمم الرفيعة في سلوكه العلمى ونتاجه العلمى مهيب مخوف ممن يحاول دراسته على وجهها الصحيح ، فالناس مع تقديرهم لإياه ، يرون ما في نفوسهم نحوه أقل مما يستطيعون الحديث عنه من ميادينه المتسعة . فيرجحون الحديث عنه حتى يستطيعوا استيعاب ما يريدون ، وتمر الأيام وراء الأيام ، وهم لا يجدون في طوقهم ما يأملون ، فيتركون القمة العالية إلى ما دونها ، وذلك خطأ واضح ، إذ على كل مخلص للحقيقة أن يسعف التاريخ العلمى بما يقدر عليه من الثمار ، ولا يشينه في شيء أن يقتصر على ناحية دون ناحية ، لأن حديثه المحدود سيجد من يجعله نقطة بدء ينطلق منها إلى حلقة جديدة ، وبذلك تتم السلسلة الممتدة على أيدي أفراد لا على يد فرد واحد .

ولكني نلّم بعض حلقات هذا الرجل الكبير نذكر أنه كان المدافع الأول عن حوزة الإسلام في ميدان الفكر المعاصر بأقوى ما يملكه الباحث من سلاح ، لأن القدر قد وجهه منذ نشأته وقبل أن يبلغ العشرين من عمره إلى ريادة هذا الميدان متخذاً عدته من ثقافة الماضى والحاضر معا ، ثقافة الماضى فى كتب التراث الإسلامى على مدّ القرون المتطاولة منذ ظهر التأليف العلمى بين الناس ، وثقافة الحاضر فيما حملته الأفكار الأوربية من نظريات علمية وأصول فكرية ، تتلاقى وتختلف ، وتعارض وتتناهى ، وهى فى كلّ ذلك تؤثر الهجوم على تراث الإسلام ، جاهلة حقيقة تارة ،

ومتجنيةً عليه عن معرفة بحقيقته تارة أخرى ، ونحن نعلم أن الأستاذ الإمام محمد عبده رضى الله عنه كان الفارس الأول في هذا المجال ، إذ تصدّى لشكوك المفترين بأفكارهم من دهاقين الغرب ، تصدّى من يقرع الحجّة بالحجة ويصد الدليل بالدليل ، ثم لقي الإمام ربّه ليخلفه أناسٌ يسيرون على دربه مقارين أو مُباعدين ، وفي طليعهم الأستاذ محمد فريد وجدى ، ومن المدهش أن يكتب كثيرٌ من الباحثين عن مدرسة الإمام فيذكرون كثيراً من الأسماء صادقين . ولكنهم يتركون الاسم الأول الذى يجب أن يذكر عن حقٍّ واثق لا يتطرق إليه الريب . وهو اسم الكاتب الكبير الأستاذ محمد فريد وجدى . ولكي أحمو من ذهن القارئ كل بادرة للشك فيما أقول ، أذكر أنّ تلميذ الإمام الأول صاحب المنار ، ومؤرخ حياته ، ومُسجّل دروسه وطابع كتبه وناسر أفكاره السيد محمد رشيد رضا ، قد تحدّث عن الأستاذ محمد فريد وجدى وهو شابٌ لم يبلغ الثلاثين مقارناً بالأستاذ الإمام وهو في أوج قمّته وتألق مجده ، فوّازَنَ بين كتاب (رسالة التوحيد) للأستاذ الإمام ، وكتاب « المدينة والإسلام » للأستاذ محمد فريد وجدى قائلاً ^(١) :

كفى هذا الكتاب شرفاً أننا جعلناه ثانياً كتاب رسالة التوحيد ، التى لم يُؤلّف قبلها في الإسلام قط ، ولعمري أن مؤلّفه الفاضل - يريدُ الأستاذ وجدى - جرى على آثار الأستاذ في الرسالة أسلوباً وبحناً ، ولا يعيبه أنّه لم يبلغ شأوه بلاغةً وتحقيقاً وتحريراً ، فالأستاذ حكيم الأمة في هذا العصر ، وأبلغ كتّاب العرب أجمعين ، على أنّ في الكتاب من الفوائد الكثيرة ، ما ليس في الرسالة ، كما أنّ فيها ما ليس فيه ، فلا يستغنى بأحدهما عن الآخر ، ومما يمتاز به الكتاب سهولة التناول ، فيتسنى لجميع طبقات الناس فهمه .

ولقد انتقل الأستاذ الإمام إلى رحمة الله بعد صدور هذا المقال بستّ سنوات ، إذ لقي ربه في سنة ١٩٠٥ ، وحاول تلاميذه المخلصون أن يقتفوا أثره في إيضاح محاسن الإسلام ، وردّ شبهات المناوئين ، وكان فريد وجدى فارسَ الحلقة الأولى . لأنّ كثيراً من تلاميذ الإمام قد اقتصروا على كسب التراث وحدها ، ولم يُتَح لهم

(١) مجلة المنار - السنة الثالثة ١٩ / ٤ / ١٨٩٩ .

أن يقرعوا شبهات المهاجمين في لغتها الأوربية ، كما لم يُتَح لهم أن يرصدوا التيار الفكري المتدافع في أوروبا بما تجبّد من نظريات ، أو تناقش من فروض ، فكان الأستاذ وجدى بثقافته الواسعة محيطاً بما يصطرع في أوروبا من مذاهب عقلية ، قد لا تمس الدين مساً مباشراً ، ولكنها ذات أصول تمتد إلى فنون البحث العلمى ، ويتخذ منها الذين لا يقفون على أصول الإسلام في كتبه المعتمدة معاول للهدم . بدّل أن يتشدوا ليعرفوا ما لديهم قبل أن يناوئوه ، أجل ، كان الأستاذ وجدى رحمه الله بطل الموقف في أحلكّ ساعاته ، وأقول في أحلكّ ساعاته ، لأنّ انتصار إنجلترا وفرنسا في الحرب العالمية الأولى قد بهر الناس بحضارة الغرب ، وفيهم من جعل هذه الحضارة أساس الرقى الإنسانى ، وليته وقّف عند ذلك ، بل امتد إلى الشاطئ الآخر ليجعل ثقافة الإسلام إحدى عوامل الهبوط المشاهد في العالم الإسلامى ، ثم اتسعت الترجمات لتنقل آراء الملاحدة من أشياع المذهب المادى ، فتكون عامل هدم حين تنسب إلى علماء مشتهرين تجلجل أسمائهم في بلادهم ، لتكون لدى أشياعهم في الشرق أعلى صَحْباً ، وأقوى فَرْقة ، وقد احتل هؤلاء الأتباع منابر الإعلام في أقوى الصحف وأوسعها انتشاراً ثم في الكليات الجامعية ، والمدارس العليا ، وكانت الموجة من القوة بحيث ظنّ بها أن تكسح الشطوط الواقية لولا أنّ الله قد حفظ دينه بأمثال محمد فريد وجدى ، ممن تصدوا للدفاع فصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأبلوا خير البلاء . ثم تجلّى الواقع المشرق ، بعد أن أفلست حضارة الغرب بقيام الحرب العالمية الثانية المدمرة ، فإذا رُعاة المدنية الأوربية وحوشٌ في غابة ، وإذا السراب الخادع لا يروى ظمأً ، بل يؤجّج غليلاً ، ولا بُدّ من اتجاه آخر يتدفق ماؤه من نبع أصيل ...

كانت رسالة الدفاع شاقة وعسيرة ، لا ينهض بها غير ذوى الكفاءة الثاقبة ، والأستاذ وجدى أول من تصدّى للدفاع بأقطع سلاح ، لأنه جعل نفسه جندياً في كتبية مُستشهادة لا تعرف الهوادة ، ومعها عُدتّه من الاطلاع الشامل ، والخبرة بآفات الفكر المعاصر ، وعِلل ما يستورد من النظريات الخادعة . مع إلمام جيّد ببواعث التّهجم ، وحيل التّربّص ، فإذا أُضيفت إلى ذلك كله عفة القلم ، ونزاهة الضمير ، والارتفاع عن مهاوى الإسفاف ، كان المدافع متصراً في ميدانه ، لأن هدوء النبرة ، وتلصّس العذر ، والمقابلة بالتى هى أحسن تدعو المتسرع إلى الاتّعاد ، والغاضب إلى

الهدوء ، لا سيّما إذا كانَ هذا السلوك المثالي من كاتبٍ يملك الإقناع ، ويعتصم بالبرهان ، وقد صدّق الأستاذ العقاد حين ذكر أن الأستاذ وجدى قد اقتربَ بواقعه من المثل الأعلى ، إذ لا يستطيعُ أغتَى معارضيه أن يأخذَ عليه لفظاً يخل قليلاً بآدابِ البحث ، وقوانين المناظرة ، كما كان هذا المثل الفريد واضحاً في اتجاهه الفكرى في شتى ميادين البحث العلمى ، إذ لم يجعل من قلمه متجراً يعرضُ شتى البضائع ، وما أقدره على ذلك ، فهو صاحب الموسوعة الكبيرة التى تُسمى بدائرة معارف القرن العشرين ، وقد جمعت كلَّ ضروب الثقافة المعاصرة والقديمة ، أقول ، إنه لم يشأ أن يجعل قلمه متجراً لشتى البضائع ، بل حدّد وجهته في الدفاع عن الفكر الإسلامى ، واستنهاض المهمة الوانية كى تحفّ إلى دورها المرتقب ، وقد تهافت كبرياتُ المجلات والصحف على آثاره ، ومنها بعض الصحف التى لا تؤيّد منحاه ، ولكنها تفخر بأن تكونَ معرضاً لشتى الآراء ، فكانَ بحثُ الأستاذ بين شتى البحوث المختلفة ، بسمّة في ثغر ، وبرقاً في غنيم ، أمّا المجلّاتُ الملتزمة فإنها تجدُ في ثمرات الأستاذ أكلاً شهياً يستطيّه القراء ، فهى تُباهي به في اعتزاز ...

وحين أرادتُ مشيخة الأزهر أن تنتقل بمجلتها من طورٍ إلى طورٍ ، رأيتُ أن الأستاذ محمد فريد وجدى أصلحُ من يتولّى الإشراف على تحرير المجلة ، لأن مجلة الأزهر في طورها الأول حين كان يرأسُ تحريرها الأستاذ الكبير محمد الخضر حسين - وهو من أعلام الفكر الإسلامى المعاصر - كانت تُرضى حاجة القارئ في التفسير والحديث والفتاوى الفقهية ، والموضوعات الخلقية ، كما تضمّ جانباً من بحوث التاريخ الإسلامى وشجوناً من مسائل اللغة والأدب في لفظٍ عفّ ، ومنطقٍ صائب ، وهذا كلّ موضعٍ الارتياح من ذوى الاطلاع ، ولكنّه ليس وحده كافياً لمناهضة الشبه الغريبة التى تُفدُ إلى الشرق بعامة ومصر بخاصة ، في مظهرٍ برّاق يقع موقعُ المفاجأة ممّن لا يسبرون الأغوار ، بل يكتفون بالسطح الخادع ، ومن هنا قام الأستاذ بتجديد هادف ، حدده بقوله - ببعض التصرف - (١) .

(١) افتتاحية مجلة الأزهر ، المجلد الخامس عشر ، المحرم سنة ١٣٦٣ هـ .

إن مجلة الأزهر مقصدان عظيمين ، أولهما خدمة الإسلام على النحو الذي يتفق وثقافة العصر الحاضر ، وتقبله عقلية أهله ، وهذا مقصد خاص ، فائدته قاصرة على أهل هذا الدين في مشارق الأرض ومغاربها ، ممن ينظرون إلى الأزهر نظرهم إلى كعبة العلم ، وينبوع الهداية ، وقد وقفت مجلة الأزهر لتوفية هذه الخدمة حقها ، أما ثاني المقصدان فهو خدمة القضية الدينية بوجه عام ضد الفلسفة المادية التي استبدت بالعقلية الأوروبية ثلاثة قرون متوالية ، فأفسدت المذاهب الفلسفية ، واستندت إلى الناحية المادية من العلم ، فجعلت لنفسها سلطاناً على الأذهان لم يكن لتعاليمها الإلحادية في عهد من عهود البشرية ، وأسقطت من سلطان العقل ، في الإشادة بالحس ، فأضاعت على الناس مزية الاستهداء بالوجدان ، ومع أن الدليل المحسوس هو الدليل الذي لا يمكن التماهى فيه ، ولكن في الوجود حقائق أولية لا سلطان للحس عليها ، ولا يدركها إلا الوجدان والنظر العقلي المحض ، وهي تهم الإنسان ، وتؤلف عناصر كماله المعنوي ، وإنما اضطرت مجلة الأزهر لأن تقف هذا الموقف للدفاع عن الأصول الدينية التي تقررها ، إذ لا معنى أن تقيم ما هي بسبيله من صرح الإيمان بينما تندس في العقول مزاعم إلحادية تهدم ما تقيمه منه ، إن لم يكن علناً ، ففي ثنايا النفوس وأحناء القلوب ، فلم تن في نشر البحوث الضافية في محاسبة المذهب المادي مستندة في ذلك على الاكتشافات الحديثة للعلم ، فكان لجهادها في هذا السبيل أثر ظاهر في إنارة القلوب ، وتعديل الأنظار .

وهذا كلام قاله الأستاذ بعد عشرة أعوام من رئاسته لتحرير المجلة ، وهو مفهوم واضح لكل من تابع قراءة المجلة من قبل ، ولكن اعتراضات وُجّهت لها بشأن اهتمامها البالغ بدخض الشبه الغربية ، وعرض ما يجذ من الفلسفات الأوروبية مقدراً بميزان الإسلام ، وفي ضوء تعاليمه ! ومن هنا اتجهت بحوث الأستاذ منذ ولّى رئاسة التحرير وجهته أولى هي تجلية الأسس الإسلامية مقارنةً بغيرها من أسس مناهضة ، ووجهة ثانية تتجه إلى نصره الدين باعتباره حياً سماوياً ، وهي وجهة عامة تشمل الأديان الإلهية جميعها ، لأنها في صميمها الخالص تحمل جوهر الإسلام الصادق ، وما جاء الاختلاف إلا بتحريف تابعت دلائله ، ووضحت مراميها ، وإذا كانت أكثر شبهات الملاحدة تتجه إلى زعزعة المفهوم الرباني للدين ، فإن في محاربة هذا الاتجاه

المُخَرَّب ، توطيداً لمكانة الإسلام ، إذ هو الدين الخاتم ؛ دين محمد بن عبد الله !
توالث مقالات الأستاذ في هذين الاتجاهين ، وقد تكون له في العدد الواحد
أربع مقالات ، ومحاولة الاختيار من هذا الطوفان الهادر ، مُرهقة مُضنية ، ولكننا
نُرجح بعضاً عن بعض ، حين نرى في إحدى المقالات تكراراً لما سبق أن بيّنه الأستاذ
من قبل ، ولا حيلة له في هذا التكرار ، إذ كثيراً ما يضطر إلى معالجة موضوع
يحمل جزئية من موضوع آخر سبق أن وقّاه حقه ، فيضطر إلى إعادة ما قال ، وكاتبُ
المقالات في الصحف السيّارة ، غير كاتب الأبواب في كتاب مستقل ، لأن مؤلف
الكتاب يرسم خطته مبدئياً فلا تتداخل فصوله على نحو يلفت النظر ، أما كاتبُ
المقال في صحيف دورية تتابع على مرّ الأعوام ، فيواجه موضوعاً استدعته مناسبة
طارئة فيقول عنه كل ما يجب أن يقال ، وإن كان منه ما سبق قوله في مقال سالف ،
وعندنا مجموعات أدبية لنفسي من صفوة الكتاب كالعقاد والمازني وطه حسين وأحمد
حسن الزيات وأحمد أمين نلاحظ فيها ما نلاحظ من التكرار في بعض مقالات الأستاذ
وجدى ، هذا إلى أن طبيعة المقالات الهادمة للمذهب المادّي تقتضى الاستعانة
بنصوص قوية كتبها بعضُ الأعلام في مؤلفاتهم الغريبة ، وهى من القوة في التدليل ،
والبراعة في الاستنباط بحيث تؤدي دورها في تأييد الدين ، ومن هنا أكثرُ الأستاذ
وجدى من الاستشهاد بأقوال هؤلاء الأعلام ، والقارئ الحصيف يرحّب بها في
مكانها الطبيعي لأنها تسد فراغاً يتسع بابتعادها ، فلا ملام .

- ٢ -

ولاذن فقد اتجهت كتابة الأستاذ وجهتين ؛ وجهة الإسلام باعتباره الدين
الخاتم ، ووجهة تأييد الدين على إطلاقه ، ونبدأ بتلخيص زُيْد من آرائه في الواجهة
الأولى ، ومن أولها ما كتبه تحت عنوان (المستقبل للإسلام) إذ طُلب إليه أن يُدلي
بأقوى ما يملك من حجج ، لكي يبين أن الإسلام دين المستقبل ، وكأنتي بالكاتب
الكبير وقد اغتبط اغتباطاً شديداً بما طُلب إليه ، لأنه حين يكتب في هذا الموضوع
إنما يخوض في بحرٍ سبر غوره ، وعرف اتجاهه موجه ، وظفر من أعماقه بأنفس
ما يحرص عليه من الدر الثمين ، إذ كان هذا الفيلسوف المؤمن يحلم بمدينة فاضلة
تُحقّق السعادة العامة للبشر جميعاً ، ولن تكون هذه المدينة إلّا في ظل الإسلام كما
نزلت قوانينه على رسول الله في محكم القرآن ، وظلّ هذا الحلم الجميل يراوح الكاتب

ويغاديه في حياته الحافلة جميعها ، فهو يكتئب عنه مشوقا ، وفي ذهنه أن الصباح سينبج عن نوره الوضيء ، وإذا لم يُتَح له أن يرى سيطرة الإسلام على الحياة في عمره المحدود ، فإنه لعلّى وثوق أن الأجيال القادمة ستعُد بتحقيق هذا الحلم ، لأنه مطمئح الإنسانية الواعد ، ولا بُد أن تصل إليه عن قريب أو بعيد ! وما كان الرجل مسرفاً في خياله ، بل كان يرقب أمواج الحياة منذ تدفقت في بحرها الأزلى فيرى نشأة البشرية في الأغوار والكهوف ، وبين الضواري والوحوش ، ثم محاولتها التغلب على الصعاب حتى اهتدت بنور العقل إلى ما وصلت إليه الآن ، هذا العقل الذي صارع اللجج أجيالاً خلف أجيال حتى اهتدى إلى أمورٍ يُسلم بها اليوم دون نقاش ، اهتدى إلى وجوب أن يحوّ التّعصب المذموم للعقائد الباطلة ، وإلى أن يقوم النظر العقلي مقام التقليد الأعمى ، وإلى أن تتركز العقيدة على أسس واضحة لا يتطرق إليها اللبس . ثم إلى إيجاد زمالة عالمية بين الناس كافة ، ومحاربة ما يحدث الشقاق بين الأمم والشعوب ، على أن يكون العلم اليقيني هو الفاصل بين الحق والباطل ! هذه الأصول لا مَحيص عنها في بناء مستقبل زاهر للإنسانية ، ومتى أصبحت عنصراً رئيسياً من عناصر الحياة ، واهتدت إليها البشرية العاقلة في مستقبل الأيام فتجدت نفسها في صميم الإسلام ، لأنه يدعو إلى تحقيق ما تريد .

لقد كلف الإسلام من يريد اعتناقه أن يتجرد من معتقداته السالفة ، وأن يحلّ عنه رتبة التقليد ، مخضعا كل ما يحصله من المعارف لأساليب البحث والتحليل ، مستجيباً إلى فطرته التي فطره الله عليها ، إذ كل مولود يُولد على الفطرة ، نائياً عن الظنون والهوى لأنّ الظن لا يغنى من الحق شيئا ، مقدراً نعمة الله عليه حين رزقه العقل الكاشف لأن شرّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، وهو غير مسئول إلا عن نفسه إذ ليس للإنسان إلا ما سعى ، ولا تزرُ وازرةٌ وزر أخرى ، وكل هذه صوئى تهدي إلى الصواب ومشاعل تبّد الغياهب ، ولا بدّ للتقدم الإنساني أن يبلغ هذا الحد ، بعد أن خطا العقل خطواته الفسيحة ، وبيلوغه سيجد العالم نفسه في صميم الإسلام !

هذا ما يؤكده الكاتب الكبير ، ولكنه لا يغفل أن يواجه من ينكرون هيمنة الدين من الماديين ، فيقول لهم إن التدين غريزة بشرية ، وجدت منذ وجد الناس ،

وإذا كَانَ البدائيون قد انخرَفُوا حين تَوَجَّهوا بِالْعِبَادَةِ إِلَى غيرِ اللَّهِ ، فهم متديّنون مُخطِئون ، وغريزةُ التدين لديهم تُدعوهم إِلَى التعلُّقِ بِأَسْبَابٍ تُؤيِّدُهُمْ فِي طَرِيقِ الْحَيَاةِ ، وقد آنَ الْأَوَانُ لِتَسْمِيرِ الْغَرِيزَةِ وَجْهَتَهَا السَّدِيدَةَ نَحْوَ الدِّينِ الْقَوِيمِ !

ويسأل سائلٌ ولماذا الاتِّجَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ بِالذَّاتِ ؟ وَهُوَ سُؤَالٌ أَجْمَلُ الْأَسْتَاذِ الْإِجَابَةُ عَلَيْهِ فِيمَا سَبَقَ ، وَلَكِنَّهُ يَسَعِفُ سَائِلُهُ بَعْضَ التَّفْصِيلِ الْمَقْنَعِ فَيَقُولُ^(١) :

إنَّ الْإِسْلَامَ قد دَلَّ عَلَى مَنَاعَةٍ لَا تُثْرَامُ عِنْدَ سِوَاهُ ، فَقَدْ احْتَكَّ بِالْأَدْيَانِ الَّتِي سَبَقَتْهُ ، حِينَ كَانَ جَابِرُهُ الْعُقُولِ يَتَوَلَّوْنَ الذُّودَ عَنْهَا ، فَظَهَرَ عَلَيْهِمْ بِمَا سَنَّهُ مِنْ مَبَادِيٍّ رَفِيعَةٍ ، وَاجْتَذَبَ مِنْهُمْ مِنْ عَرَفُوا الْحَقَّ ، فَصَارُوا مِنْ كِبَارِ دُعَاتِهِ ، بَلْ إِنَّ الْإِسْلَامَ وَجَدَ دُعَاتِهِ أحياناً مِنْ ذَوِي الْفِطْرَةِ الْخَالِصَةِ الَّذِينَ لَمْ يَتَبَحَّرُوا فِي مَسَائِلِ الْفَلَسَفَةِ ، بَلْ اهْتَدَوْا بِطِبَائِعِهِمُ السَّالِمَةِ إِلَى نُورِهِ ، وَقَدْ تَبَارَى دُعَاةُ الْمَسِيحِيَّةِ الْمُتَقَفُّونَ مَعَ التَّجَارِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَفْرِيْقِيَا ، كُلٌّ يَحَاوِلُ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ دُونَ دِينٍ صَحِيحٍ ، فَكَانَتْ فِطْرَةُ الْإِنْسَانِ هَادِيَتُهُ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يَفْلَحْ دُهَاقِينُ الْمَسِيحِيَّةِ إِلَّا بِإِغْرَاءَاتٍ مِنَ الْمَالِ وَأَحْلَامٍ مِنَ الْمَطَامِعِ فِي اجْتِنَابٍ مِنْ قُدْرُوا عَلَى إِغْرَائِهِ ، أَمَا التَّجَارُ الْبُسْطَاءُ مِنْ ذَوِي الْفِطْرَةِ السَّالِمَةِ فَقَدْ جَذَبُوا عَشْرَاتِ الْمَلَائِكَةِ مِنَ الْفُتُورِ دُونَ وَعِدِ كَاذِبٍ أَوْ إِغْرَاءٍ خَادِعٍ ، إِذْ كَانُوا يَسْبَحُونَ مَعَ الْتِيَارِ الْفُطْرِيِّ دُونَ أَنْ يَصْطَلِمُوا بِالْجِنْدَالِ وَالصَّخُورِ .

ثمَّ إِنَّ الْفَلَسَفَةَ الْيَوْمَ عِلْمِيَّةٌ بِحِثِّهِ ، أَى مُؤَسَّسَةٌ عَلَى الْأَصُولِ الَّتِي تَدْفَعُ الْمَعْلُومَ إِلَى الْمَجْهُولِ ، وَفَقّاً لِلْأُسْلُوبِ الْعِلْمِيِّ ، لَا أَنَّهَا خَيَالِيَّةٌ تَصْوِيرِيَّةٌ يَطِيرُ بِهَا الْإِنْسَانُ عَلَى جَنَاحٍ مِنَ الْأَوْهَامِ كَمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَهَذِهِ الْفَلَسَفَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ لَا بُدَّ أَنْ تَبْلُغَ مَبْلَغَهَا مِنَ الصَّوَابِ ، فَتَهْتَدِي إِلَى الدِّينِ الصَّحِيحِ .. وَنَحْنُ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُنْكِرَ الْعَالَمَ الْعُلُويَّ بِحِجَةِ أَنَّنَا لَا نَرَاهُ بِأَبْصَارِنَا ، وَلَا تَحَسُّ بِهِ مَشَاعِرُنَا ، لِأَنَّ فِي الْوُجُودِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ ، ظَوَاهِرَ مَادِيَّةٍ كَشَفَهَا الْعِلْمُ الْحَسُّوسُ وَقَرَّرَهَا ، وَكُنَّا لَا نَتَصَوَّرُ وَجُودَهَا ، فَهَلْ كَانَتْ هَذِهِ الْكَائِنَاتُ الْخَافِيَّةُ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ لِأَنَّ لَا نَرَاهَا بِالْحَوَاسِ ؟

ثم إن العلم قد قرّر أنّ حولنا من الحركات والذبذبات الأثرية ما لا نراه ولا نحسّ به ، بل حولنا كثير من الكائنات الحية التي لا تَرى ولا تلمس ، وتعجز الحواس عن إدراكها !

فبأى حق يجوز لنا أن ننكر العالم العلوى لأننا لا ندركه بالحواس ، وإذا تقدمت الإنسانية في كشفها العلمية فستصل إلى ما يؤكّد حقائق الإسلام ، ولن يطول الأمد ، لأن الاكتشافات تتوالى على نحو سريع !

لقد نبغ في الأرض مصلحون كثيرون ، ولكنهم جاعوا بالأوليات ، ثم كمل عملهم في قرون كثيرة بواسطة من تابعوا من تلاميذهم ، فجاءوا بالمقدمات ، ووكّلوا لخلفائهم أن يحاولوا التمام ، ولكن محمداً ﷺ جاء بالنهايات ، ولم يقف عند الأوليات ، فوضع أساس الاجتماع ، وأصلح المعتقدات ، وأثار العقول ، ولم يترك الأمة إلا وهي مثّل عالٍ لما يمكن أن تكون عليه جماعة من صحّة الاعتقاد ، وترباط الآحاد ، وتوحد الوجهات ، وتكافل الطبقات ، هذا من ناحية بناء المجتمع ، أما من ناحية النظم التي يجب أن يقوم عليها ، فقد جاء الإسلام بكتابٍ مكتمل شمل من أصول التشريع ومبادئ الاجتماع الراقى من العدالة والمساواة والحرية وحدود الحقوق والواجبات ما لم تصل الأمم المتقدمة إلى بعضه إلا في العصور المتأخرة بعد قرون قضتها في الانقلابات والفتن والثورات . وإن نبياً يأتي بدين مكتمل في بيئة لا عهد لها بالتشريع ، وينجح في جذب الملايين إلى وجهته لصديق صدوق ..

ولكثرة ما عالج الأستاذ قضايا الفكر الإسلامى نراه يُحسن اختيار النصوص الدالة من القرآن والحديث بحيث يأتي الاستشهاد في موضعه الصحيح دون تعسف ، وله في صوغ المقال الدينى أسلوب مؤثر يرضى العقل بمنطقه كما يريح القارئ بوضوحه ، ولا يهجم بهذا الاستشهاد دون أن يمهد له بذكر القضية التي يعالجها محاطة بالبراهين الفكرية قبل النص الدينى ، حتى إذا أشبعها تحليلاً وتفسيراً ، وأفاض في عرضها المستوعب جاءت النصوص في الخاتمة مصدقة لما بين يديها من الآراء ، وذلك مذهب سبق إليه الأستاذ الإمام إذ يفترض في قارئه أنه غير مُسلم ، وأنه مستعد للمعارضة إذا رأى وجهاً من وجوه الضعف ، ولا سبيل إلى إقناعه حينئذٍ إلا بالمنطق

الصريح مشفوعاً بما يؤيده من قضايا علم الاجتماع ، ودلائل الأحداث التاريخية في الماضي والحاضر ، وقد تحدّث الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله عن انتفاعه بمجالس الأستاذ فريد وجدى الذى كان يؤمّها زائروه في منزله بعد صلاة المغرب من كل يوم ، حيث يتّسع المجال لتعليقات مفيدة تدور حول قضايا الحاضر والمستقبل ، وهذا الاتصال المباشر بجمهرة الشّيبة الإسلامية أفاد الكاتب الكبير في تعرّف الاتجاهات المختلفة كما فتح له أبواب الموضوعات التي تشغل أنصار الفكرة الإسلامية ليُلقي عليها مزيداً من الضوء في مناقشاته . ثم لتكون مادّة للبحث العلمى حين ينتقل بها من ندوات السّمر العلمى إلى صفحات المجلّات ، وأبواب الكتب ، وإذا كانت الصحف العربية على مدى خمسين عاما لم تخل من آثار الكاتب المتابعة فإن محاولة تتبّعها مما يُرهق ، ومن المؤكّد أنّ إلحاحه على تأكيد صلاحية الإسلام لقيادة العالم ، قد نزل من نفسه منزلة الرّسالة الواجبة الأداء ، كما دفعه إلى تحديد مكانة المسلمين بين الناس ، إذ كانوا خير أمة أخرجت للعالم ، لم يميّزوا بلون أو لغة أو جنس ، بل لكونهم يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله ، فهم الأمة الوسط التي عنها الله بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١) وقد علّق الأستاذ على هذا النصّ الكريم بقوله : « إنّما جعلناكم كذلك ، لنسند إليكم مهمّة عالمية جليّة الشأن ، هي أن تكونوا شهداء على الناس في تقصيرهم وغلّوهم ويكون الرسول عليكم شهيدا ، وهذا مثل أعلى من مثل الاجتماع لم ينزل به الوحى على أمة غير الأمة الإسلامية ، وإنّه لأمرّ جلل يحقّ معه للأمة التي تنال هذا التقدير أن تبدّل كلّ ما في وسعها من علم وعمل للمحافظة عليه ، .. ولا جرم أن أمة تنصبّ من نفسها حسيباً من هذا الطراز الصارم ، وتقيم من ضميرها المشبع بروح العدل رقيّاً على سيرتها ، تصل إلى أسمى درجات الكمال الاجتماعى ، وتتهدّى إلى أبلغ غايات الرقى المادى والأدبى ، فإذا قلنا إنّ هذا المثل القرآنى الأعلى كان أثره على الأمة الإسلامية الأولى

(١) هذه حياق للدكتور عبد الحليم محمود ، ص ١١١ .

(٢) سورة البقرة : ١٤٣ .

أن حفظها أولاً من التدنس بالمطامع الذاتية ، والتنمر للجماعات التي وقعت تحت سلطانها ، وأنه مكنها ثانياً من الاتصال بروح الوجود وقيومه ، فأيدّها بما سمح لها أن تطوى الزمان طياً ، فتبلغ في سنين معدودة ما لم تبلغ بعضه الأمم في قرون كثيرة . لو قلنا ذلك لما كنا مبالغين بشهادة الانتقالات الاجتماعية والمدنية الخطيرة التي تمت للمسلمين في سنوات قليلة ^(١) .

أما كون هذه الأمة الوسط خير أمة أخرجت للناس ، فمما لم يفت الكاتب الكبير أن يدلّ على مغزاه فهو يرى أنّ هذه الخيرية قد ساقطت المسلمين إلى النجاح المثالي في نشر الدعوة حين ظهورها ، فدفع ما ران على القلوب من جاهلية ، وكسرت ما طوق الرقاب من أغلال ، فبعد أن كانت بلاد العرب مباءة للوثنية ، ومؤثلاً للجمود والتحجر أصبحت مثاراً لأعظم اندفاع إنسانى بعيد الأثر في تحطيم الحجب وإزالة القواطع الناهضة أمام المدنية الفاضلة ، هذا في عصر النبوة ، ثم هو بعد انقضائه لا يزال عامل إثارة حميدة في استفزاز الهمم ، لأنّ الله لم يحصر خير الإسلام في القوة أو الثروة بل أطلقه ليعت الكمال الإنسانى في الكون ، لأنّ الأصول الإسلامية مقيسة على طاقات النفوس ومؤلفة بحيث تثير قواها الكامنة فيها ، محصنة بما لديها من المناعات الواقية .

وفي ظلال الاعتزاز برسالة الأمة الإسلامية ، ظهرت القوميات في أوروبا ، تنادى بتفضيل الوطن ، وارتفاعة عن غيره بما تخلّق له من مزايا يُجيد ابتكارها المحترفون ، وانتقلت العدوى إلى بلاد الإسلام ، إذ ظهر من يدعون إلى القومية . وكأنّها في مظهرها مبينة للإسلام ، وهؤلاء ذبول من البيغاوات التي تردّد أنّ الوحدة وحدة جنس لا وحدة لغة أو دين ، وقد تسامحوا في عدّ اللغة عنصراً من عناصر الوحدة ، إذ رأوا الأمة العربية لا تحيد عن لسانها رغم الدعوات الملحة إلى العاميات في الأقاليم المختلفة ، تسامحوا في عدّ اللغة عنصراً من عناصر الوحدة ، وقام الدين شجى في حلوقهم . وكأنه عقبة العقبات في مجال التقدّم ، وقاد الجمهور فريق من رجال السياسة لا يفهمون شيئاً عن الإسلام ، ولكنهم وجدوا في الدعوة إلى القومية

(١) مجلة الأزهر : ربيع الأول ١٣٦٦ هـ .

تثبيتاً لزعامتهم ، فعملوا على ترسيخها ، ومحاربة كل من يتجه وجهة أخرى تتسع للمفهوم الإنساني الشامل ! فكتب الأستاذ وجدى مقالات هادفة توضح أن الوعي القومى لا ينافى الوعي العالمى ، لأن شعور الأمة بوجودها كوحدة اجتماعية لها حقوقها الطبيعية ، وعليها واجباتها الإنسانية لا ينافى أن تكون هذه الأمة خلية من خلايا الجسم العالمى الذى يجب أن يتناسك ، وإذا كانت الدعوات المنادية بضرورة اعتبار البشرية جميعها وحدة واحدة تبطل معها الحروب ، ويحل التفاهم محل التنازع ، إذا كانت هذه الدعوات الإنسانية ردّها أفراد من مفكرى أوربا ، فإن الإسلام قد احتضن هذه الدعوة المباركة ، على حين لم يغفل الدعوة إلى الاهتمام بالوطن الخاص إذ أن المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وقد جاء قول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ^(١) جاء هذا النص الكريم إيذاناً للعالم أجمع بضرورة التعارف . وإذن فللمسلمين فوق شعورهم القومى شعور عالمى يشمل الإنسانية جمعاء ،! هذا الشعور الإنسانى النبيل يقف موقف النقيض من رأى فليسوف الفلاسفة أرسطو حين اعتبر الأرقاء من البهائم المجردة من الإنسانية ، ومن رأى أفلاطون الذى يحمد الله أن خلقه يونانيا ولم يقدر له أن يكون من جنس آخر ، وإذا كان الوعي القومى لبنة فى بناء الوعي العالمى ، فهما متساندان لا متنازعان .

وفى حومة الجدل فى هذه الآراء الثاقبة ذات النظر الفسيح يفاجأ الأستاذ وجدى بمن يعترض عليه بأن الدعوة للإسلام دعوة للبدع التى تأخر بسببها المسلمون ! ولو كنت مكان الكاتب الكبير لأغفلت هذا الهراء الذى فات أوانه ، فقد كلت الألسنة من إيضاح هذه البدع ، ومجافاتها لروح الإسلام ، بحيث لم تعد قضية تُثار ، ولكن الرجل السّمح يتلقى كل اعتراض بالابتسام . ويرد عليه ، حتى لو وُجّه له فى كتاب خاص بالبريد ، فإنه يكتب الرد بالبريد أيضاً وقد يشتمل على عشر صفحات إرضاء لنزعته الإنسانية فى الهداية والإرشاد ، لقد كرّر الأستاذ القول

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

في هذه البدع استجابةً للاعتراض الموجّه إليه ؛ فذكر أنّ من أوليات التشريع الإسلامي تخلص الإنسان من الآصار الوهمية التي أنقضت ظهره والوساوس الجاهلية التي ضلّت عقله والجهالات الوراثية التي أفسدت قلبه ، حتى يكون من التنزه منها على مثل ما كان يوم ولدته أمّه ، أتى على الفطرة التي فطره الله عليها ، ولكن الشعوب لا تخلو من جهلة أميين تأنس نفوسهم للبدع ، وتسلم مقادتهم للمضلين ، فانتشرت فيهم تقاليد وعادات ليست من الدين في شيء ، بل هي ثجافيه كل المجافاة ، واضطر حُماة الإسلام أن يذحضوا البدع بما أذاغوه من مؤلفات ، وألقوه من محاضرات . ولكن الغرض السيئ لدى من ينتفعون بهذه البدع قد صمّ العامة عن النصح الزاجر ، فاكسبت هذه البدع باستمرارها الدائم قوة أصيلة ، حتى اختلطت بالدين في نظر الدهماء وصارت جزءاً منه ، وأصبح لها من المرتزة دُعاة مروجون ، وجاءت الحكومات فاسترضت العامة بتأييد هذه البدع حتى أصبحت عبثاً ثقيلاً على المصلحين ..

والرأى الصريح لدى الكاتب الكبير أن يتعاون العلم مع الدين في تزييف الضلالات ، إذ لا عداء بين العلم الصريح ، والدين الصحيح ، وقد بدأ المخلصون من العلماء في هذا الاتجاه ، إذ عملوا على تخلص الدين مما علّق به من الأوهام ، حدّث هذا في الغرب ، ويحدّث مثله في الشرق ، وهو مفيد للدين بنوع عام ، لأن الإسلام لم ينزل باعتباره ديانة جديدة . ولكن باعتباره الدين المطلق الذي أنزله الله على جميع أنبيائه ورسله ، فحرّفته الأمم وأفسدت أصوله القيمة بشروح وتأويلات حسبته تخدم أغراضه وجهلت أنها خرجت به عن دائرته ، وأحالتّه إلى علم بشري لا يتصل بالسماء ، وعلى المسلمين أن يعرفوا أنهم يمثلون الدين التقى الخالص فلا يسمحوا للعامة ولا للخاصة أن ينحرفوا عن أصوله بإحياء البدع المنكرة ، والتقاليد السقيمة ! فذلك خطر كبير .

- ٣ -

لا أظنّ كاتباً ألحّ على مهاجمة الماديين طيلة نصف قرن ، بحيث لا يكاد يمرّ أسبوع دون مقال كاشف لبعض الحقائق العلمية التي تهدم المذهب المادى وتقتلعه من جذوره ، كما ألحّ الأستاذ وجدى على مكافحة هذا المذهب ، ومع أنّه أصدر

ثلاثة أجزاء حافلة تحت عنوان (على أطلال المذهب المادى) فجمعت ما يمكن أن يُقال فى دحض هذا المذهب ! وكان فيها اقتناعٌ باللجوء إلى جبهةٍ أخرى غير جبهة الماديين !! مع هذه الأجزاء الثلاثة التى استوعبت ما يكفى للإطاحة بهذا المذهب ، فقد جعل شُغْلُه الشاغل بعدَ صُدور هذه الأجزاء تتبّع ما يقوله الماديون فى صُحف الغرب ليكرّ عليه بالتفنيد ، ولا يُقدّر ذلك الجهد المتصل حتى قدره إلّا من يعلم ما يجلبه المذهب المادى على الإنسانية من شرور ، لأنّه فى صميمه ينكرُ خالقَ الكون . ويرى الإنسانَ حيواناً يأتى ويذهبُ دون أن يرمى حقوق الناس أو يخافَ المسئولية يومَ الحساب ، وتصورُ مُجتمعاً بأكمله يعتنقُ هذا المذهب ، فلا يستشعر وجودَ ربٍّ قادرٍ رحيم يلجأُ إليه فى الشدائدِ راجياً أن يُعف العاجز المقهور ، أو يشفى المريض المتأوّه ، أو يرزقَ الجائع الملتاع بحيث تصيرُ الحياة مفقودةَ الأمل فى التصير مظلمةً فى عين من يسرى بلبلى بهم دون أن يأمل الشرق المضىء فى الصباح ! ثم تصورُ ثانيةً كيف يعيش أفرادُ هذا المجتمع ، وكلُّ واحدٍ منهم لا يخشى رقيباً يؤاخذه إذا اقترَفَ الجرم الشنيع ! له أن يسرق ، وله أن يقتل ، وله أن يفجر ، وعليه أن يختاط فلا يقع فى دائرة القانون الرسمى - فإذا تسرّ فى جرائمه فقد نجأ إذ لا حشرَ ولا حساب ! تصورُ مُجتمعاً لا ربَّ يحميه ، ولا يومَ حسابٍ ينتظره ، وافرّق بينه وبين مجتمع الضّواري الكاسرة ، حين يأكلُ الكبير الصغير .. إن إنقاذ البشرية من وباء المذهب المادى جديرٌ أن يتفرَّغَ له حشدٌ من الكتّاب فى العالم العربى ، كما قامت الحشودُ المناوئة له فى الغرب ، وأحسبُ أنّ الأستاذ وجدى قد أدرك ذلك كله ، فجعل من شغله الشاغل أن يُواصل الهدم الملح لآراء الماديين . وأحسبه قد فازَ بالنصر المبين .

على أن إلحاحه فى التفكير المتصل بهذا المنحى قد هداه إلى التفكير فى وضع منطق دينى يهدم به زُيُوف المذهب الإلحادى . فهو صاحبُ مذهبٍ فى التفكير الدينى يعصم من الخطأ ، وقد شرح ما دفعه إلى وضع هذا المنطق الجاد فقال إنّ للمعقولات أداة تعصم من الخطأ ، وللمعلومات أداة تُرشد إلى الصواب ، وتحجى الباحث من الخلط بين ما هو علم يقينى ، وما هو رأى مُرجّح ، وما هو افتراضٌ مؤقت ليأمن العقل بالمنطق النظرى من الخطب على غير هدى ، وليتقى الباحث فى قضايا العلم

أن تكون هذه المظنونيات في مرتبة اليقينيّات ، وقد وضع المنطق الأول أرسطو ، ووضع المنطق الثاني (يكون) فلا بدّ أن يكون للدين منطقٌ يحوّل دون الخلط بين الحقائق والأوهام ، وفيما وصل إليه العلم العصرى والفلسفة الحديثة من النظريات والمعارف ينبوعٌ لا ينضب لبناء أصول هذا المنطق ، وهذا العصرُ أنسبُ الأوقات لوضع الأصول الكافية لمنطق الدين ، لأنّ العلم قد وصل إلى حدٍّ بلغ فيه سينّ الرشد لا من ناحية أنه انتهى إلى حدودٍ ما يُمكن معرفته ، ولكن من ناحية أنه أدرك أنه يقدر على أن يُعيّن ما يمكن معرفته من المجهولات ، وما لا يمكن أن يصل إليه . ثم ساق الأستاذ نصوصاً كثيرة لأعلام من علماء الغرب تؤكد الحدود التي تنحصر فيها قدرة العلم ، كما أنّ التواضع العلمى الآن أصبح ذا سيادة ، إذ قضى على تخيلاء من يظنون أنهم قد سبروا الكون ، وأدركوا العلل والأسباب لكل ما يجرى به ، حيث اتضحت من الحقائق العلميّة الجديدة مسائل عصفت بالمقرّرات المتوارثة ، والأصول التي كان يُظن بها الرسوخ ، كما أنّ المكتشفات الهائلة في عالم الروح قد فتحت آفاقاً بعيدة للنظر العلمى السديد ، وكلّ ذلك قد أيقظ العاطفة الدينيّة ، ومهد الطريق لخلاص الروح ممّا يلحقها من وساوس الأساطير القديمة .

يقول الأستاذ محمد فريد وجدى « هذه الحالة العلميّة الراهنية تسمح لمثلّى أن يستفيد منها في وضع منطق دينى مُستمد ممّا تقرّره المعارف المحصّة ، بحيث لا يخرج في أصله من أصوله عما ثبت بالبرهان القاطع من بحوث العلماء ، وما عُرف من اتجاهات النُفسيّات الصافيّة . وإنّى أعتقد أن الروح العصريّة قد نضجت لظهور مثل هذا العمل العلمى ، لأنّ المقرّرات التي يجب أن يستمدّ منها مادته ليست مما يتغير بتغير الأزمان ، ولست أبالغ إذا قلّتها إنّها أصبحت بدهيات علميّة تكاد تكون في مستوَى المعلومات الضروريّة للإنسان ^(١) » .

وقد بنى الأستاذ منطقَه الدينى على أصول نذكر منها هذين :

١ - تساوى الناس جميعا في الحقوق بحيث لا يتفاضلون بجنس أو لغة أو لون ، ولكن بالمزايا الأدبيّة والقوى العقلية .

(١) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ، العدد الثانى سنة ١٣٥٨ هـ .

٢ - الدينُ غريزةٌ عقليةٌ موهوبةٌ لا مكتسبةٌ ، فهو شيءٌ فطرى لا خلاص

منه .

وقد فسح المجال لتحليل هذين الأصلين ، وتطبيقهما على مقررات الإسلام ، ليتخذ المنطق الدينى من الإسلام دعامةً العلميّة فيما جاء به من نصوص ، والعملية فيما طبّقه من قواعد عبر التاريخ الممتد منذ العصر النبوى ، وبديهي أن محاولة إيجاد منطق ديني مدعم إنما هي بذرة تُلقى في أرض ، وعلى الباحثين في هذا الاتجاه ، أن يُوالوا الثمرة بالرؤى والرعاية حتى تنشق عن دوحه باسقة الظلال ، وكلّ المذاهب التي تنسب إلى رعوسٍ مفكرة كانت متواضعة النشأة ، حيثُ غرس الأستاذ بذرتها الأولى ، وتوالى التلاميذ من بعده ليرعوا غراسه بالتعهد اليقظ ، ولدينا كليات متخصصة في شئون العقيدة ، وبها أساتذة مخلصون ، ولهم تطلّع وارتقاب ، ومن واجِبهم أن يحتضنوا كلّ فكرةٍ مخلصّة تهدي إلى النهج القويم .

وقد تنوعت الأساليب التي يتخذها الأستاذ في تأييد مذهبه ، فهو مرّةً يضطّيع طريقة الحوار أخذاً وردّاً لتجلى الحقائق باحتكاك الآراء ، وتضارُع الأفكار ، وثانيةً يتخذ المقال العلمي سبيلاً للإقناع فيبدأ بمقدمة دالّة ، يليها عرضٌ كاشف مبسوط الأدلة ، متعدد البراهين ، ثم يختم بتلخيصٍ وجيزٍ يشير إلى زُبدة ما يرمى إليه ، وثالثةً يكتب عن علم من أعلام الفكر الديني ليتحدث عن آرائه في الحياة والبعث والخلود ، وارتباط الأسباب بالمسببات ، منتزعا فرصة الاحتفال بذكرى ، أو بمنح جائزة ، أو صدور كتاب جديد . ويُخيّل إليّ أن طريقة الحوار هي أسهل الطرق إلى إيضاح المراد ، وقد أبدع الأستاذ وجدى كل الإبداع فيما انتحى به هذا المنحى في كتاب (الوجديات) ثم في بعض مآرِفد به مجلة الأزهر من بحوث ، ومنها ما كتبه تحت عنوان (حاجة الناس إلى الدين) ^(١) فهو ذو حجاجٍ فكري يروى النفوس المتعطشة إلى الاقتناع ، فالماذيون يقولون مثلاً :

(أ) إن الإنسان قد اندفع إلى التدنّين خوفاً من جوائح الطبيعة ، وما تفجأ به من رعودٍ وزلازل ، فيكون الرد :

(١) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء الخامس سنة ١٣٦١ هـ .

(ب) ما باله وقد أمِن في مجتمع راق يزداد شعورا بحاجة إلى الدين ؟
 (أ) إنه يتدبّر طمعاً فيما وعد به بعد الموت من وجود كريم ونعيم مقيم .
 (ب) ومن أين أتاه هذا اليقين الذي يدفعه إلى هذه النهايات البعيدة ، وهو وَقَفَّ على الموجودات المحسوسة كما تعتقدون ؟

(أ) إنه يفكر في المستقبل ، تفكير الذي حصلّ شذوراً من العلم فهده تفكيره إلى مثل هذا المصير .
 (ب) إذن قد تعانق العلم الصحيح مع الدين الصحيح ، فإذا أمكن أن يُهدَم العلم أمكن أن يُهدم الدين .

(أ) التشبيه مع الفارق لأنّ العلم قوائم الإنسانية ، ولا صلاحية للوجود بغيره ، ولكن الدين شهوة عقلية تستقيم بدونه أحوال الأفراد والجماعات .
 (ب) هذه تفرقة غير صحيحة بين الحاجات الإنسانية فقد تكون الحاجة العقلية أشدّ علوقاً بالنفس وأفعل في تقويم الحياة من الحاجة المادية لأنّ المدار على قيمتها في النفس الإنسانية ، والإنسان كثيراً ما يضحي بالماديات في سبيل فرحه بالمعنويات .

(أ) كان ذلك في عهد القصور العلمي ، أما الآن وقد ارتقت العلوم والمعارف فقد أحسّ الإنسان أن الحاجة الروحية تتركز على هوى يمكن التغلب عليه .
 (ب) العلم لم يقدر بعد على كبح الأهواء البشريّة ، وكسر عرامها ، ولكنه ساعد على الحروب الفاتكة ، والاختراعات المبيدة ، فهو لا يُغني غناء الحاجات المعنوية .

(أ) لماذا لم تُحلّ العصور التي كانت السيطرة المطلقة فيها للدين من ويلات الحروب وآفات الدمار ؟

(ب) ليس ذلك بسبب الدين ، ولكن بسبب الانصراف عن الدين ، ولو كان للدين السلطان الحقيقي ما فرغت الإنسانية مما تكابده من الأهوال .

هذا حوار لم يُسَق هذا المساق في مقال الأستاذ وجدى ، ولكنني استخلصته

ورتبته ليكون واضح الدلالة في مغزاه العلمي من ناحية ، وليخفف بعض الجفاف لدى نفوس لا تجد الصبر على الأخذ والرد في نقاط مركزة تستدعي شدة اليقظة ووفرة الانتباه .

وإذا كان الأستاذ قد وضع بذرة ما سماه (منطق الدين) فإنه نظر في الأسلحة الجدلية التي كان يتخذها علماء الكلام في صوغ براهينهم العقلية ، فرآها اليوم ليست كافية في أداء رسالتها المنشودة ، لأن المسائل الكبرى التي يهتم الإنسان معرفتها وهي أصل الوجود ، وحدث الكائنات ، وتولد الحياة ، ونشوء الروح الإنسانية ومظاهرها المختلفة ، كل هذه المسائل قد شغلت الفلاسفة في القديم والحديث ، ولكنها تعجز اليوم أن تبلغ منزلة الإقناع من المثقف المعاصر ، لأن علماء الطبيعة قد نظروا للكون نظرات جديدة يصعب على علماء الكلام أن يطلوا ما اهتموا إليه من هذه النظريات ، وعليهم أن يدرسوا هذه الفتوحات العلمية ليرؤوا دلائل جديدة لقدرة الله في دقة النظام الكوني ، واطراده على سنن لا يتبدل ، مع عدم التسليم بنظرية طبيعية إلا إذا استقرّ التدليل عليها في موضع مطمئن لا يتزعزع ، وحينئذ يكون العلم المعاصر سلماً للاطمئنان الفكرى في مسائل الدين « لا أن يكون شوكة في جنبه ، وما ينفر من قضايا العلم الصحيح إلا من عجز عن إدراكها ، فاكفى بالتنديد والتهويل .

وقد انتقل الأستاذ محمد فريد وجدى قبل أن تلفظ الشيوعية أنفاسها في أوروبا بستة وثلاثين عاما ، ولو امتد به الأجل لرأى تحقق قوله ^(١) :

« فهذا التورط الشنيع الذى تتكلفه الشيوعية ، وتحفظ به في سيل عارم من دماء البشر في سبيل اجتثاث الدين من قلوبهم لا يُعقل أن يدوم » إذ أن الأيام قد صدقت ظنه في إبادة هذا الاتجاه الفوضوى الإلحادى على أيدي أنصاره ، لا على أيدي خصومه ، وتلك هي العجيب حقاً ، لقد نازل الأستاذ وجدى الشيوعية كما نازل غيرها من المذاهب الهدامة الوافدة ، ولم يكن في نزاله ذا عاطفة تحميه فحسب ، ولكنه كان ذا منطق عقلى واضح المهيح ، وهو يوحى هذا المنطق الواضح ،

(١) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ، سنة ١٣٥٩ هـ . ص ١٠١ .

يُحدّد مجرى الحديث فلا يندفع فيه إلى استطرادات فسيحة تنتقل بعقل القارئ في شتى الأودية ، بدل أن تحصره في حيز محدود المعالم ، بارز الاتجاه ، فقد قال في بدء حديثه إن حياة الشعوب الاجتماعية تقوم على سنة طبيعية ثابتة من التطور التدريجي فلا يُستطاع نقلها من حال إلى حال بنظام يتكرر ، أو برنامج يُتخيل ، ومن هذا القبيل جاءت جمهورية أفلاطون وسياسة أرسطو وكل المدن الفاضلة فلم تُغن شيئا ، والنظرة المركزة إلى أصول المذهب الشيوعي تحدها في ثلاثة أشياء رئيسية ، أولها محو الملكية الفردية ، والحقوق الوراثية ، وجعل الأرض وما عليها ملكا لجميع الأفراد . وثانيها حذف رعوس الأموال الفردية ، وجعل الحكومة قيمة عليها ، وثالثها استئصال شأفة الدين من المجتمع باعتباره ألد أعداء الشيوعية .

أما الأصل الأول وهو محو الملكية الفردية فمناقض للوضع الطبيعي ، لأن الناس كانوا في أول نشأتهم لا يعرفون الملكية ، بل ينحصر جهدهم في الحصول على الغذاء ، ثم هُدوا إلى الزراعة التي تُشبع الجوعة فحسب ، حتى إذا تقدّم الاجتماع ، وزادت المعرفة بأدوات التحصيل ، وتميّزت الأسر ، وُجدت الملكية الفردية . فالملكية إذن ارتقاء من الشيوعية إلى ما فوقها ، فإن عادت أمة إلى الشيوعية الأولى زایلها ما ابتنى على الملكية من وشائج الاجتماع ومناعاته وأصبحت رهن ثورة عاتية تفكك الأوصال ، وإذا كان الشيوعيون يريدون أن يمنعوا كسب إنسان فوق حاجته ، فإنهم بذلك يقتلون روح التنافس المشروع في نفوس الآحاد ، فصبح الكافة سواسية في الفاقة والعدم ، ولن يمنع ذلك وجود حكومة مهيمنة على الثروة العامة ، لأن قيام الحكومة مقام الأفراد يحيلهم إلى آلات لا تجد الحافز إلى الإنتاج ، كما يُشيع الخوف والهلع حين يرى الفرد أصحاب الأمر يثبون حوله الأرصاد والعيون حذراً من تدمره الداعي إلى الثورة ، ويصبح بعض الأمة جواسيس على بعضها الآخر فيقع التنازع ، ويليه الخراب .

هذا عن الأصل الأول ، أما الأصل الثاني وهو الهادف إلى محو طبقة الأغنياء لتحسن حالة الفقراء فباطل ، لأن الدماء ليسوا فقراء لأن بضعة رجال من أصحاب الملايين قد احتكروا الثروة ، بل لأن مقدار ما تُنتج الأرض في بيئتهم من المواد الغذائية لا يكفي دون سعي جاهد لاستنبات الزرع ، والبحث عن المعادن ،

وقد كَتَبَ الأحرار من مفكرى الروس أنفسهم ما يؤيد ذلك فقال الأستاذ (نوفيكو) « إن المَال الذى يراد تقسيمه غير كافٍ لحاجة الناس ، إذ لو صُودرت الأرباح الفردية وقُسمت على الناس في الدولة الواحدة ، لما نالَ أحدٌ أكثر من ١٢٪ من دخله الحالى ، فالمليونير الأمريكى (بير مور مورجان) يحصل على ثلاثة وثمانين مليوناً من الفرنكات - مثلاً - في السنة الواحدة . فإنَّ صُودر هذا الدخل وقُسم على إخوانه الأمريكيين ، نال الواحد منهم أقلَّ من فرنك ! فهل يُغنى ذلك شيئاً في رفع المستوى المادى ! » .

ثم إنَّ السيطرة الحكومية بعد القضاء على ذوى الثراء تقضى أيضاً على عواطف التنافس في الصدور ، وتشل ملكات الطموح ، فتحرمُ مجموعَ الأمة من الجهود العظيمة في إقامة المشروعات النافعة ، وبذلك ينهار الوضع الاقتصادى وتجويع الأمة . أقول ، وهذا ما حدث فعلاً في كل بلد شيوعى ، بزيادة خطير آخر ، هو أنَّ الرؤساء في دُول الشيوعية جميعاً ، لم يَصْدُقُوا الناس فيما يدَّعون ، إذ جمعوا لأنفسهم من الأموال الطائلة ما سَرَقوه سِرّاً دون جهد ، ثم عاشوا عيشة الترف البالغ في قصورٍ تُحاكى ترف الأباطرة الكبار ، وقد افتنَّ من يَقْدِرُ على النهب في ابتلاع ما يصل إليه . وبذلك جاعتِ الأمم ، وثارَتِ الجموع ، وسقطت الشيوعية دون رثاء .

فإذا انتقل الأستاذ وجدى إلى الأصل الثالث ، وهو استئصال الدين من المجتمع باعتباره ألدَّ الأعداء ، فإنَّ الكاتب الكبير هنا يجولُ في ميدانه الذى خُلِقَ لإحراز القصب السابق في مبارياته ، إذ تهكَّم ممن يقولون أنَّ كل مجتمع طبقى يتولَّد فيه الدين تحت تأثيرِ النير الاقتصادى ، لأنَّ الدين غريزة توجد في النفوس قبل أن يعرف أصحابها نظامَ الطبقات ، فكيف يتولَّد من هذا النظام ، والدين لا يستمد سلطانه من جُوع الجماعات ولا من وقوعهم تحت براثن القادة الظالمين ، بل يستمدّه من أشرف عواطف النفس ، وأكرمِ غرائز العقل وقد ثبت بالمشاهدة أنَّ الإنسان إذا كانت قواه مستوعبة في طلب القوت ، ضَعُفَ سلطانُ الدين عليه ، ولم يَجِدْ وقتاً للنظر في نفسه ومصيرها ، ولا للفكر وآدابه ، وكثيراً ما أدّاه شطْفُ العيش إلى الكفر الصريح ، وما ارتكبت الجرائم ، إلّا حين يَحُفَّتْ صوتُ الدين في النفوس ،

والدينُ بعد ذلك مُفترى عليه حين يُقال إنه يستبقى العادات البالية ، ويُحى النزعات الرجعية ، ويخلق شريعة العبودية ، ففى فرنسا وانجلترا وأمريكا لا يزال للدين صولته ورجاله الذين يُباركون الرؤساء إذا تمسكوا بالدين ، وما رأينا الدين مانعاً هناك من تطور العلاقات بين الحكومات والشعوب ، ولا من تهذيب الصلات بين أصحاب الأموال والعمال حتى اعتبر العمل ورأس المال متساويين فى الحقوق !! واعترفت الحكومة بالنقابات العمالية ، وسمحت لكل مظلوم أن يلجأ إلى دور القضاء لينال حقه الممنوع ، وذلك كله دون التنكر للدين ، أما الدين الإسلامى فقد أنقذ العرب بدءاً من ظلمات الجهالة ، ثم أنقذ العالم حين رفرت رايته على الأمم التى اهتدت به ! وإذن فالدين باعث ارتقاء لا هبوط ! تلك نقاطٌ مركزةٌ بما بسطه الأستاذ ، وقد أثبتت الأيام صحة منحاه بما هو مشاهد للعيان .

- ٤ -

أخصّ ما كتبه الأستاذ وجدى عن المرأة المسلمة ببعض التفصيل ، لأن الكاتب الكبير قد تعهّد قضية المرأة المسلمة بالشرح والتوضيح منذ أخرج الأستاذ الكبير قاسم أمين رحمه الله كتابه تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ، إذ كان أول من نقد المخالف من آرائه نقداً موضوعياً حازَ ارتياح المصنفين ، وأقول نقداً موضوعياً لأن بعض الغلاة ممن واجهوا صاحبَ تحرير المرأة تركوا اللباب المعترضَ عليه إلى السبب والتهكم ، فضاعثَ نقداً جوار ما يتلبّسها من شطط لا تعرفه آداب المناظرة والبحث ، والعجيبُ أن الأستاذ وجدى رحمه الله قد قابل مثل هذا الهجوم المتعسف حين بسطَ وجهة نظره فى الأربعينيات بصدد حق المرأة فى الانتخاب ، إذ تهجم عليه من لم يعرف قدرَ نفسه ، قبل أن يعرف قدر الكاتب الكريم ، ولا أدرى لماذا يُحاول من يدعون الغيرة على الحقائق الإسلامية أن يُهاجموا كل من خالفهم فى منحى من مناحى التفكير ، وكأنه علوٌ حاقد ، لا أنه مسلم صادق يحاربُ معهم فى جبهة واحدة هى جبهة الدفاع عن الإسلام ، وقد أمرنا الله أن نجادل أهل الكتاب بالتي هى أحسن ، فكيف نجادل من يتسمون الذروة فى قيادة الفكر الإسلامى مهاجمة العدو اللجوج ، وهل من حقائق الإسلام التى نتظاهر بالدفاع عنها أن نتناول على ذوى القدمة السالفة فى مضمار البحث الجاد بلا هدى أو برهان ؟!

لقد كان كتاب « المرأة المسلمة » المنار الأول لمن يُريد رأى الإسلام في قضية المرأة ، وكان الأستاذ وجدى من التزاهة والإنصاف بحيث أنزلهُ معارضوه حينئذٍ منازل التقدير والإعجاب ، فقد أوضح أن تلاحم الشرق بالغرب جعل بعض المتسرعين يرون نقل عادات الغرب كما هى دون نظرٍ إلى واقع المجتمع الإسلامى وقال إننا نقلد الغرب دون أن يوجد التناسب المطابق بين المقلد والمقلد ، لأنّ الباحث المدقق في أحوالنا الاجتماعية يجد أنّ حافظة الأمة الإسلامية لا تتشابه في كلّ وجه بحافظة الأمم الغربية التى تُدعى الآن إلى احتذائها فكونُ التصيحةُ بالتقليد نصيحةً بالاستخذاء والتلاشى ، ثم أفاضَ الأستاذ في إيضاح الخلاف العضوى في تكوين جسمى الرجل والمرأة ، كى يؤدّى كل منهما وظيفته في الحياة وفق ما يناسب تركيبه العضوى ، وهو كلامٌ أصبح الآن من البدهيات ولكنه في العقد الأخير من القرن التاسع عشر كان داعياً للانتباه ، ثم أوضح آراء مَنْ ينادون بالتزام المرأة الأوربية وظيفتها الخاصة بإدارة المنزل وتربية الأولاد ، وهم من أعلام الفكر في بلادهم ، فلماذا نصرُّ على تجاهل آرائهم ، ونميلُ إلى آراء المتحللين من القيود ، فهل كتب علينا نحن الشرقيين أن نعتمد على المتطرفين وحدهم لنأتى بالباهر الغريب .

أما ضرورة الحياة التى يتعلل بها من يسمون أنفسهم أنصار المرأة ، فقد ألزمت الشريعة الإسلامية محارمها بكُلِّ ما تطلبه من النفقات ، كما ألزمت بيت المال أن يقوم بنفقاتها إذا فقدتِ العائل المعين ، وما يبدو من العِلل المزمّنة لَدُنّا في مسائل الطلاق وتعدد الزوجات والحجاب ، هو علةٌ لدى من لا يعرفون حقائق هذه الأشياء ، أما مَنْ يدرس الشريعة دراسةً واضحة ، فسيرى أن كلّ حكمٍ فقهيٍّ أجمع عليه الأئمة هو طريقٌ صلاحٍها الوحيد ، أما سجنُ المرأة المزعوم فهو مجرد ادعاءٍ باطل ، فإذا كانت إقامة المرأة في منزلها لتشغل وقتها بحاجات البيت وتربية الأطفال ، سجنًا لها يحبسُ حريتها الواجبة ، فإن لزوم التاجر لتجاره والزارع لحقله والصانع لمصنعه يعتبر سجنًا لهؤلاء ، إذ يشتغلون سحابة يومهم فيما يترزقون منه ، دون أن يشعروا بقيد ! فكيف يكون اشتغال المرأة بواجب بيتها سجنًا ! وهو أكثر حرية لها من مصنع الصانع ، ومتجر التاجر ، لأنها وحدها ربة البيت ، ولا كذلك العامل في المصنع ، والمدرس في المدرسة ، وكلٌّ من يزاول عمله المعاشي في مجتمع عام .

ومما يدعوا إلى الارتياح أن كثيرا ممن كانوا يعارضون الأستاذ فريد وجدى فى اتجاهه ، قد أطلّوا النظر فى كتابه إطالة الفحص الدارس ، حتّى اقتنعوا بأفكاره ، وفيهم من ذوى الصدارة الفكرية من يشار إليهم بالبنان ، فقد ألقى الأديب الكبير الدكتور منصور فهمى كلمةً ضافية فى الأربعينات تحت عنوان (نساؤنا بين التقليد والتجديد) ^(١) ، تحدّث فيها عن قاسم أمين وما طرأ من فهمٍ سيّء لآرائه ، ثم اتّجه وجهة الأستاذ فريد وجدى فسار مع أفكاره سيّر المُحبذ الموافق ، واستشهد بنصوص من كتاب (المرأة المسلمة) وأنكر ما أنكره الأستاذ وجدى من التبدّل وفساد الذوق ومحاولة التغرير بالمرأة حين تُخدع بما يقال عن الاختلاط فى المصنع والمتجر مزاحمةً بالنكح فى نضال غير متكافئ قائلا بصدد ذلك :

« وقد صدق الأستاذ وجدى فيما كتب ، فمُحاكأنا للغرب ، تدفع نساءنا الحديثات فى كلّ ميادين العمل الاجتماعى ويُغرّر بهنّ ليسرنّ فى هذا السبيل ، من غير قيد ولا حذر ، وقد توقع الكثير من علماء الاجتماع سوء عاقبة هذا التماهى فى التغرير بالمرأة ، وتوريط المجتمع فى كوارث خلقية واقتصادية حتّى إن « أوجست كومت » وهو رأس من رعو سر فلاسفة الغربيّين كان يرى من واجب الهيئة الاجتماعية أن تُضمّن للنساء حياةً ناعمة مريحة إذا أعوزهنّ من يكفلهنّ من الأقارب والأزواج ، ليتجنّهنّ وجهتهنّ فيما تُخلقنّ له من إسعاد الأسرة ودعم أساسها ، وهو ما يساير تعاليم الإسلام .

وعلى صفحات مجلة الأزهر تردّد آراء الأستاذ فى قضية المرأة ، لمناسباتٍ شتى ، لأنّ المطالبات بما يُسمّى حقوق المرأة يجذّن من تشجيع الصحافة ما يُرضينّ به فضولهنّ من نشر الآراء المترددة فى المحيط الاجتماعى منذ نادى قاسم أمين بدعوته ، وأكثرهنّ لم يقرأنّ ما قال قاسم أمين ، بل لا يُطقنّ أن يصنبرنّ على دراسة بحثٍ منهجى ، وقد تركنّ منازلهنّ للمريبات والخدامات . وحرّصنّ على الاجتماعات المتلائلة ، ليتردّد لهنّ صدئى بين الناس ، وفيهنّ من تزوجت ثم طلّقت ، فهى بسيرتها لا تصلح أن تكون قدوةً لبنات جنسها ، ولكنّ الصحافة تُرحب ، والصور المتلائلة تظهر ،

(١) مجلة الرسالة : العدد ٤٠٦ فى ١٤ ابريل ١٩٤١ م .

والذكر يذيع ، وهذا كُلُّ شيء ، بل خاتمة كُلِّ شيء يتغن ! دأب الأستاذ فريد وجدى على تعقب ما يعن من آراء الشاذات والشاذين ، وفيهم من ذهب إلى أن الإسلام يُحرّم على المرأة أن تتعلّم ، ويؤثر أن تظلّ جاهلة ، ففسح المجال للكاتب الكبير أن يردّد ما قرّره من قبل بتعبير آخر ، فأفرد بحثاً تحت عنوان (هل للمرأة أن تتعلم العلوم العالية) قال فيه إن الإسلام لم يضع حداً لنشاط المرأة العقلى فأباح لها أن تتوسّع في دراسة العلوم ما أمكنها التوسيع ، ولم يمنعها أن تنشر علمها في الناس ويأخذ الرجال عنها ، وضرب المثل بنماذج مشهورة من فضليات الصحابة ومن تلتهنّ من نساء الصدر الأول ، وقرق بين مشاركة المرأة الرجل في دراسة العلم وبين مشاركتها إياه في أعباء العمل الشاق بالمصنع والمنجم ، إذ أن هذا العمل المرهق يحول دون أداء رسالتها الطبيعية في الحمل والإنجاب والتربية ، وإن أكثر ما نشكو منه في بناء الجيل الصاعد انصراف الأمهات عن تعهد أبنائهن إلى وظائف مظهرية يذهب أجرها أو أكثره في الذى تنفقه المرأة على الملبس والمظهر وأجر الحاضنة ونفقات الرواح والجميى ، بمعنى أن النفع المادى الذى ينشده هؤلاء لا يرضى الحاجة الملمنة ، ويظلّ الزوج صاحب العطاء ، هذا إلى ابتذال المرأة واكتسابها بعض أخلاق الرجل من الخشونة والمجادلة ، بحيث لا تصبح حاجة من حاجات النفس الظائمة إلى الحديث المؤنس والرقة الحانية ، بل تكون شريكاً يتباهى بعمله وأجره ، ويعلن استقلاله التام في تكبر لا تعرفه الأسر الراضية ، ولا البيوت السعيدة من قبل ، وقد فطنت أوروبا إلى افتقاد السعادة المنزلية ، وحرمان الأطفال من بسمات العطف ، وحنان الصدر ، فنادى أكثر المصلحين برجوع المرأة إلى وكرها ، وأخذوا يضعون حداً لعملها الخارجى ، فاستجاب لهم من لمسوا الضياع من الأزواج ، ولمسّن الإرهاق من الزوجات ، وما شكّت منه أوروبا لن نلتفت إليه حتى نمرض به ونعتل ثم نبحت عن الدواء .

وثانية أطالت فيها الصحف ، ورأت سيدات الصالون أن يسهمن في تأريثها ، تلك هى مسألة تعدّد الزوجة دون الاقتصار على واحدة ، وقد أشيع الأستاذ وجهة النظر الإسلامية تحليلاً وتعليلاً بما لا مزيد عليه ، ثم جابه بعض المشاهير من رجال القانون لدينا باعتراضات ظنّها مقنعة ملزمة ، ولكن الكاتب الكبير عصّف بها عصّف الرّيح بالرمال ، فأوضح أن الإسلام حين أقرّ مبدأ التعدّد لم يُساير الشهوات الخسيسة

كما يتوهم المعارض ، بل ليحصر مَيول ذوى القوة الجنسية فى نطاق لا يتعدونه ، إذ فى الرجال من جُبلوا على الطمع فى غير واحدة ، ولا بد أن يُحققوا رَغباتِهِم عن طريق الانحراف ، فليكن التحقيق إذن من باب مشروع ، وقد حَظَرَتْ أوربا تعدد الزوجة ، ولكنها أباحت العلاقة الآثمة بين الجنسين ، بل بين آحاد الجنس الواحد إذ اعترفت بعضُ الدول باتصال الرجل بالرجل ، وصدرَ بذلك قانونٌ لا أدرى كيف يُسنُّ فى مجتمع يدعى قيادة المدنية بين الشعوب ! فانحطَّ الذوق فى هذه المجتمعات انحطاطاً لا مثيل له ، ثم إن الذين يجرِّمون الزوجة الثانية يُسيِّحون للزوج أن تكونَ له خليلَةٌ وخليلاتٌ ، ولو سألنا آيَةَ زوجةٍ عاقلة عن تعدد الزوجة والمخادنة ، لآثرت أن يتزوجَ الرجلُ عليها زوجةً ثانية بدل أن يُخادِن اثنتين وثلاثاً دون عائق ، فيبددَ عليهنَّ ماله وصحته ووقته ، ويصبحَ خالِعاً العذار ، جارياً فى أعقابِ شهواته ، ينفق على الخليلات ، ويضنَّ على الحليلة وأولادها ، ولنَّ يرجع إليها إلّا إذا أفعده المرض ، أو نضبت الثروة ، وهو رجوعٌ لاصلاح معه ، لأن الجرحَ قد اندمل على صديد ! فى مثل هذه المعانى جالَ قلم الأستاذ فسطر أكثر من عشر صفحات لا تجد بها غير المقنع السديد ..

هذه إشاراتٌ سريعة تدعو قارئها أن يرجع للأصول التى كتبها الأستاذ باسطلا متدققاً ، وأنا أتقدمُ بها لتكونَ عاملَ شوقٍ للدارس ، وباعتِ همةٌ تُنفِضُ عنه غُبار القناعة الراضية بالتلخيص والاكتناز ، وقد أصبحت هذه الأصولُ مُيسرة حين قُمت بجمعها فى كتاب خاص ، يجذُّه القارئ تحت يده متى شاء فيقف على ثمرات حقل خصب .

د . محمد رجب البيومى

ذكریات أدبیّة عن :

العلامة محمد فريد وجدی

مؤلف دائرة معارف القرن العشرين

(بقلم الدكتور محمد رجب الیومی)

قضى ستین عاماً من عمره المديد لم يترك قلمه يوماً واحداً إلا لمرض ، وأبقى من الآثار العلميّة ما لا تقدر على تأليفه لجنة مختارة من الأفاضل ، وكان آية الآيات في أدب الحوار ، إذ أبدى من سعة الصدر ، ورحابة النفس ، وجمال التواضع ما يعدّ غريباً في بابهِ ، لأنّ بعض مناوئيه كان يجادلّه بالتّي هي أقبح ، فلا يجد غير الصّفح العاقل ، والتغاضى البصير ، بل يجد الثناء على بعض ما اهتدى إليه خصمه من حقائق كانت غائبة عن المنقود ، ولا أرسل هذا الكلام لإرسالاً دون دليل ، فلدىّ الشواهد .

لقد جادل المغفور له السيد محمد رشيد رضا في بعض المسائل الدينيّة ، وكانت في صاحب المنار رحمه الله حدّة تدفعه إلى التعلّي والاستفزاز دون موجب ، وقد تورّط فرمى مؤلف دائرة المعارف ومفسّر كتاب الله بالجهل ، وقرأ فريد وجدی شطط مُناظره ، فأغضى عنه ، وأخذ يناقشه مناقشة الصديق للصديق ، وأذكر أنّي حادثه فيما كان من أمره مع السيد رشيد رضا ، فقال مبتسماً : إنّ كلينا يحارب في جبهة واحدة ، هي الجبهة الإسلاميّة ، وإذا كنّا نُحاول الرفق مع خصوم الإسلام لنستدرجهم إلى سماع ما نقول - فإنّ الرفق بأصحاب الاتجاه الواحد أدعى وألزم . وهي وجهة عاقلة لا تجد من يلتزمها غير الآحاد .

كما أذكر أنّ الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله ، قد هاجم الأستاذ محمد فريد وجدی في كتاب (أوقات الفراغ) هجوماً قاسياً ، وعاود الكرة على صفحات مجلة السياسة الأسبوعية ، فردّ الأستاذ في أدب ملتزم ، ثم أخرج الدكتور هيكل كتاب (حياة محمد) فقابلهُ الأستاذ محمد فريد وجدی بإطراء ضافٍ ممتد ، وقال إنه من الصفحات الرائعة التي سيكتب لها الخلود ، وللرجل في هذه المثاليات نماذج

رائعة لا يرتقى إلى مستواها سواه .

(أول تعارف)

كنتُ طالبا بمعهد الزقازيق الثانوى ، فكتبْتُ مقالا متواضعا عن كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل يدعوهُ للإسلام ، سارداً ما روته كتب التاريخ عن أثر الكتاب في نفسية الامبراطور الرومانى ، وعن اجتماعه بأبى سفيان وسهيل بن عمرو وسؤاله عن نبى العرب ، ثم اجتماعه بالبطارقة ليناقتشهم في أمر النبى الجديد ، ثم أرسلتُ المقال إلى مجلة الأزهر التى يرأس تحريرها الأستاذ محمد فريد وجدى ، وكان ذلك تسرعاً من طالب ناشئ يبعثُ بمقاله المبتدئ إلى أكبر مجلة إسلامية في ذلك العهد ، ففوجئتُ بعد أسبوعين بمظروف كبير ، يأتى إلى بالبريد ، ففضضته لأجد مقالى مع ردِّ توجيهي من الأستاذ وجدى ، خلاصته أنه سرُّ أكبر السرور باتجاه طالب ناشئ إلى الكتابة في التاريخ النبوى ، وإنه يُباركُ هذا الاتجاه ويُحبِّذه ، ولكنه يلفتنى إلى شيء هام ، هو أنَّ المقال الإسلامى الجيد ليس إعادةً للأحداث المدوَّنة بأسلوب مختلف الألفاظ ، ولكن الواجب أن يكون للكاتب رأيه الخاص ، وتعليقه الشخصى على الوقائع ، وتحليله الدقيق للمواقف الغامضة ، وحينئذٍ يُضيف الجديد إلى القديم المتعارف ، ثم رجائى فى تواضع أن أحاول الاستفادة مما قال ، وذلك لا يتأتى إلا بدوام المطالعة ، والصبر على القراءة المفيدة ، حتى تتكوَّن لدى ملكة الكتابة على نحو كريم .

قرأتُ الخطاب عدَّة مرات ، وكان أول خطاب يصلنى من كاتبٍ مرموقٍ يحتلُّ الصدارة بين ذوى الأقلام ، فأعجبتُ به أشدَّ إعجاب ، ولكن حافزاً دافعاً حثينى على أن أردَّ عليه فى إجلال وإكبار ، فكتبْتُ أقول له إني شاكرٌ لتوجيهه السديد ، وأنه سيظلُّ مصباحاً أستضيء به ، ولكنى مع ذلك أصارحه بهاجسٍ بهاجسٍ فى نفسى ، هو أننى أقرأُ لكثيرٍ من العلماء مقالاتٍ تُعيد التاريخ دون إضافة ، ويُشرُّ بعضها بمجلة الأزهر التى يُشرف عليها الأستاذ الكبير ، فما تفسير ذلك ؟! وانتظرتُ قليلاً حتى سعدتُ بردُّ للأستاذ قال فيه : إنه ارتاح كثيراً لاستجابتى لتوجيهه ، وسأجنى ثمرةً يانعةً بمرصى على القراءة النافعة ، أمّا المقالات التى أشرتُ إليها ، فهى فى مُستوى ضعيف لا محالة ، ولكن كُتَّابها من كبار الشيوخ ، ولن يخضَعُوا لتوجيه

من مثله ، والصحيفةُ صحيفةُ الأزهر ، وشيوعه في مقدمة كتابها ، لذلك فهو يتجه بالتوجيه إلى أمثال من الطلاب ، معتقداً أنهم يُشترُون بأملٍ مرتقب إن شاء الله ! قرأت الردَّ فاقتنعتُ به ، وأحسست أن الكاتب الكبير أصبح قريباً من نفسى ، بل أحسستُ أنه أستاذى الذى أتلقى عليه العلم ، وقد سارعتُ إلى جمع مؤلفاته وأخذتُ أقرؤها بنشوة لا أجدها عند قراءتى لغيره .

(زميل كريم)

كان لى زميل من طلاب المعهد الثانوى هو الأديب (محمد المتولى النظامى) رحمه الله ، وقد اتكأ على جنيبه ومالٍ أبيه ، فأصدر كتاباً صغيراً ، تحت عنوان (خواطر ولحات) وبعث به إلى كُبريات الصحف والمجلات من أمثال الأهرام والبلاغ والمصرى والهلل والرسالة والثقافة وغيرها راجياً أن تُنشر إحدى هذه الصحف سطوراً مشجعةً عن الكتاب ، فلم يجد أدنى أثرٍ يدل على كتابه ، مع أنه أرسلَ الكتابَ بالبريد المسجل ، وقد طلب من رئيس التحرير أن يتكرم بالتنويه عن كتابه ، أو نقده ، فعزَّ عليه أن يُهمَل هذا الإهمال ، وجاءنى شاكياً متألماً ، فسألته : هل أرسلت نسخةً إلى مجلة الأزهر فأجاب بالنفى ، قلتُ : سارغ بإرسال نسخة باسم الأستاذ محمد فريد وجدى فقد يُعقب عليها .

ثم كانت المفاجأة حين صدرَ العدد الجديد من مجلّة الأزهر (ربيع الثانى ١٣٦٢) وبه صفحة كاملة من القطع الكبير تتحدثُ عن كتاب الطالب الزميل ، وقد بدأها الأستاذ وجدى بقوله :

« تنبُّتُ في حقول الجامعة الأزهرية يراعاتٍ من الطراز الممتاز ستلعبُ دوراً بعيد الشأن ، في إعادة مجده ، وأنّ هذه اليراعات ليرشع منها ، ولما تبلغ غايةً نموها ، ما ينمُّ عما ستقوم به من رسالات علمية وأدبية نرى المجتمع الإسلامى فى أشدّ حاجة إليها اليوم ، وبين يَدَي الساعة رسالةٌ تحت عنوان (خواطر ولحات) بقلم (محمد المتولى النظامى) لا أبالغ إذا قلتُ إنها بدايةٌ تبشر بمستقبل بعيد الأثر فى تبليغ رسالة الأزهر » إلى آخر ما جاء فى الصفحة الكاملة .

وقد سرّ الزميل سرور المندھش الفخور ، وسافر إلى القاهرة كى يقابل الأستاذ شاكراً مقدراً ، وكان ممّا سمعه منه ، إنّه يرحّب بإنتاج الشباب ، ويقدمه فى التعريف على إنتاج الشيوخ ، لأنّ الشاب محتاج إلى من يشدّ أزره كى يواصل النضال ، وإنّه يقاسى مقاساة أليمة من أساتذة كبار لا يكتبون الجيد ، ثم يطلبون أن تخصّهم مجلة الأزهر بما تخصّ به التابغين من الشباب ، وقد يضطر إلى ترضيتهم بسطور ضئيلة ، ولكنه يفسح المجال بإخلاص واهتمام للشباب الناهض !

هذا ما قاله الأستاذ ، وفيه عبرة وتوجيه وانتقاد .

(إلى القاهرة)

انتقلت إلى القاهرة طالباً بكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف ، فكان لقاء الأستاذ وجدى أوّل أمنية أحققها ، فتقدمت إليه مذكراً بما كان أرسله إلّى من رسائل ، فهشّ للقاءى ، وشجّعنى أن أزوره كثيراً كثيراً ، فحدثته عن مقالات قرأتها بقلمه وحاولت احتذاءها ، وأهداني طائفة من كتبه القيّمة ، وقد حدثت نادرة خاصة به تعجبت لها ، إذ كنتُ أزور قرية ريفيّة ، وكان عامل البريد بها مسيحياً ذا ثقافة ، فجمعنا مجلس علمى عرفت من خلاله أن الأستاذ محمد فريد وجدى راسله مراسلات علمية بلغت عشر رسالات ، وكلّ رسالة تزيد على ست صفحات كبار ، فيؤلّف مجموعها كتاباً قيماً ، فتعجبتُ كثيراً ، وقلتُ فى نفسى لماذا لم ينشر الأستاذ رسائله العشر فى صحيفة سيّارة أو يجمعها فى كتاب مطبوع ليتنفع الناس جميعاً بثماره الفكرية ، بدّل أن يخصّ بها إنساناً واحداً فى قرية صغيرة ، وصمّمتُ على أن أسأله عما صنع ، فلمّا جئتُ لزيارته قصصتُ عليه ما سمعت ، ومأ دار بخلدى ، فنظر إلّى باسماء ، ثم قال فى هدوء : لقد كتبتُ مقالاً عن الإسلام والمسيحية فى مجلة الأزهر ، فأرسل إلّى هذا الرجل رداً مليحاً بالأفكار الخاطئة ، وخفّتُ أن أنشره معقباً بدحضه ، فيحدثُ النشرُ بلبلة لدى إخواننا الميحيين لا أرتضيها ، ثم خشيتُ أن أهمله فيظنّ حديثه صحيحاً وأنّى أهمّله عن غرض ، فرأيتُ أن أقنّد آراءه فى كتاب خاص بعثتُ به إليه ، ولكنه ردّ فى إسهاب ، وانتقل من موضوع إلى موضوع ، فدفعنى ضميرى إلى الردّ عليه ، وكرّر التعقيب فكّرتُ الردّ آملاً أن ينتهى النقاش عند حدّ ، حتى إذا نفدت صبرى اعتذرتُ بعد عشر رسائل ! ثم قال فى تواضع :

إنَّ الفكر أمانة ، وصاحبُ القلم ليس مخيراً دائماً فيما يكتب ، ولكنه يُفاجأ أحيانا بما لا سبيل إلى السكوت عنه ، فيحمل يراعه كما يحمل المجاهد في حومة القتال سلاحه ، والله عليم بذات الصدور .

نزلت كلمات الأستاذ على نفسي نزول المطر على الأرض الجدداء ، فأحدثت في خواطري اهتزازاً نامياً نضيراً بما يحمل من ثمر وعطر . وجعلتُ أفكر في قوله : إن الفكر أمانة ، وأن صاحبَ القلم يفاجأ أحيانا بما لا سبيل إلى السكوت عنه فأسأل نفسي : أكلُّ صاحب قلمٍ يصنع ما يصنع الأستاذ ؟ ثم أتمعن في الموضوع فأسأل : أهنأك من أصحاب الأقلام خمسة أو أربعة يصنعون ما يصنع الأستاذ ؟ ولم آيس ، لأنني أعلم أن الإسلام الصحيح إذا خامر نفساً مطعنة ارتفع بها إلى أرفع المستويات فأثت بما يعدّ شذوذا لدى العامة وهو عند صاحبه قياسي لا شذوذ فيه .

وعجبة أخرى ، فإنَّ الأستاذ محمد فريد وجدى عُرف برأيه المعتدل فيما يُسمّى بتحرير المرأة ، وقد عاصر قضية التحرير هذه منذ كتب الأستاذ قاسم أمين كتابه الذائع ، فردَّ عليه حينئذ بكتاب شهير تحت عنوان (المرأة المسلمة) كان المورد الأول لمن يريد رأى الإسلام في هذه القضية ذات الضجيج الصاخب ، ثم واصل الكاتب الكبير بحوثه عن المرأة في الإسلام ، وأبان وجهة الشريعة في مسائل الزواج والأسرة وتعدد الزوجات وتعليم المرأة والطلاق بما لا مزيد عليه ، وقد كتب مقالاً في بعض المناسبات لم يُرض أحد الوعاظ ممّن لا يبلغون مرتبة التلاميذ بالنسبة للأستاذ ، فكتب مقالاً تعدّى فيه القول إلى القائل فوصفه بما هو مبرأ منه ، وتهوّر في كلماتٍ ما كان ينبغي أن تصدر من واعظ ديني يحبُّ أن يقف عند قول الله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ ، ونشر الواعظ مقالاً في صحيفة متواضعة تنتشر في حيّز محدود ، ولكنَّ الأستاذ وجدى قد اطلع عليها ، فأفرد للرد عليها بحثاً ضافياً في عدة صفحات ، ولم يتحدث عما وجّه إليه من انتقاص لا مبرر له ، بل واجه الأفكار المتنازع عليها بما يؤيد وجهة نظره بجلاء ، وكان على الواعظ أن يسكت أو أن يُجيب بما علّمه الأستاذ من أدب ، ولكنه ردّ في تطاول ، وعرفت ما كان ، فاتصلتُ بالأستاذ وجدى لأقول له : « إن الردّ على

أمثال هذا المتشنج مما يزيد من غروره ، ولكنه ابتسم قائلاً : ليست القضية قضيته ولا قضيتي ، ولكنها قضية القارئ البصير ، وهذا القارئ سيتلو الرأي ونقيضه ثم ينجح إلى ما يستصوب ، فالرد واجب ، ومحاولة تجاهله تأييد للخطأ ، وهزيمة للصواب !

(مقالات شتي)

ظل الأستاذ وجدى قرابة عشرين عاما رئيساً لتحرير مجلة الأزهر ، وكان له في كل عدد عدّة مقالات بحيث لو جُمعت آثاره في مجلة الأزهر وحدها لكوّنت أكثر من عشرة مجلدات ، تتحدث عن أدق المشكلات الاجتماعية وتردّ أعنى التيارات الإلحادية ، وتحلل المبادئ الإنسانية الرفيعة للدين الإسلامى الحنيف ، وقد وجدت نفراً من أدعياء البحث يسطون على كثير من أفكارها في غير حياء ، ولم يُشيروا إلى المصدر المنهوب أذنى إشارة ، فقمْتُ بجمع ما كتبه تحت عنوان (مهمة الإسلام في العالم) وهو أربعة وعشرون بحثاً تُوضّح رسالة الإسلام في إنقاذ البشرية ، وإخراجها من ظلماتها الدامسة إلى مشارق النور ، ثم تفضلت اللجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف بطبع هذه البحوث الجليلة في كتاب خاص أتيق المظهر ، جيّد الطبع ، وقد صُدّر بكلمة ممتازة لأخى الأستاذ الدكتور عبد الودود شلبى أمين اللجنة العليا الذى اهتمّ بنشر الكتاب على أوسع نطاق ، وقد غصّ به الذين سرقوا أفكاره ، ناسين أن الحق حق ، وأنه لا يعدم أنصاره ، مهما غمره النسيان ، ولا تزال بين بحوث الأستاذ في مجلدات مجلة الأزهر عدة كتب قيّمة منها الفصول الرائعة التى كتبها تحت عنوان (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة)^(١) فى أكثر من أربعين فصلاً ، ومنها ما كتبه تحت عنوان (الروح الإسلامية ومدى تأثيرها فى النفوس) ومنها ما كتبه تحت عنوان (ليس من هنا نبدأ) ومنها ما كتبه تحت عنوان (فى معترك الفلاسفة) ومجلدات المجلة محفوظة بمكتبات القاهرة والمعاهد الدينية ، فهل تجد هذه الآلىء المتناثرة نظاماً يجمعها فى نسق متّصل ، ليسهل تداولها بين القارئين .

(١) تفضلت الدار المصرية اللبنانية للنشر ، بطبع هذه الفصول الرائعة فى كتاب خاص ، صادف ارتياح أهل العلم ، وأنا بسبيل إعداد كتب أخرى للأستاذ وجدى آملاً أن ترى النور قريباً إن شاء الله .

إيثار وإنصاف

تلقي الأستاذ الإمام محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر سؤالاً عن الشرك وعقوبته الأخروية ، وقد اشتط السائل حين قرّر أن الإسلام بالّغ مبالغته كبرى في عقوبة الشرك ، إذ جعله دون الذنوب جرماً غير مغفور ، إذ يقول الله عز وجل في كتابه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ^(١) . وتطرق السائل إلى تعسّفات ظنيّة لا تتصل إلى اليقين بسبب ، فأحال الأستاذ الإمام هذا السؤال إلى الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى وإلى الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى ، ليكتب كل منهما ردّاً شافياً من وجهة نظره ، وكأثنى بالشيخ الأكبر ، وقد رأى الأستاذين مع اشتراكهما في جبهة واحدة وهى جبهة الدفاع المخلص عن الإسلام يفترقان في الثقافة العلمية افتراقاً يفسح مجالاً لوجهتى نظريّ تتباعد وتتقارب ، وهذا ما كان إذ نحا الأستاذ الدجوى منحى يعتمد فى أكثره على الأدلة النقلية مستطرداً إلى أمور تمت إلى الموضوع من بعيد ، وقد جاءت لأذنى مناسبة كما يقول الأزهريون . أما الأستاذ وجدى فقد استعان بمقررات العلم الحديث ليثبت أن الدين فطرى ، وأن الشرك نكسة طارئة كان زوالها محتماً لدى من يُقدّرون الكرامة الإنسانية ، وقد نقل عن أئمة العلم الاجتماعى فى أوربا ، ما يدل على أنّ البشرية كانت موحدة فى نشأتها الأولى ، إذ عبّدت الله وحده مهتدية بفطرتها الخالصة ، حتّى طرأ من الزلل ما أدّى إلى الشرك ، كما تابع آثار الانحطاط الإنسانى لدى المهجّين من الوثنيين فى بلاد مختلفة شرقاً وغرباً ، وظهر مقالاً الأستاذين الدجوى ووجدى متجاورين فى عدد واحد ، وقد شاء بعض المتحمّسين لمقال الأستاذ وجدى أن يبالغ فى الثناء عليه مُعقّباً على مقال الأستاذ الدجوى بما يُنبئ عن الاستخفاف لا التقدير ، وكأنّه كان يريد استمالة الأستاذ بما يقول ، ولكن العلامة الأصيل ، قاطع المتحدث فى أدب . وقال إنّه استفاد من مقال الشيخ الكبير ما أضاف الجديد إلى رأيه ، وأنه نشره قبل مقاله ، اهتماماً به ،

(١) سورة النساء : ١١٦ .

واحتفالاً بما أفاض به الرجل الحجّة من خواطر تمسّ الوجدان المسلم ، وترفع من مستواه ، ورجاً الناقد أن يعود إلى مقال الدجوى مرة ثانية ، وآلاً يكتفى بالنظرة الأولى ، فتلملّ المتكلم دون أن ينطق ، ثم أثر الانسحاب ، فخرج بعد مدّى قصير .

وشاء بعض الحاضرين أن ينتقص الناقد بعد خروجه ، ولكن الأستاذ وجدى قال في هدوء : من يذرى لعله كان يعتقد صحّة ما يقول . وقد هدّيته إلى ما غاب عنه ، ومن فضله أن قرأ ووازن ، فهو خير ممّن لم يقرأ ولم يفكر ، وأحبّ أن تكون مجالس العلم موضوعيّة لا ذاتيّة ، فهذا أولى بكرامتنا .. سمعت ذلك كله فتلقّيت درساً من دروس الأخلاق .

(نظرة إمام كبير)

مات صاحب جريدة الأهرام جبرائيل تقلا باشا فأفرد الأستاذ وجدى صحيفة من مجلة الأزهر للشراء عليه بعد رحيله ، ولكن بعض الذين لا يفهمون سماحة الإسلام عدّوا ذلك موضع نقيد لا يجوز ، وسارّعوا إلى الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراعى شيخ الأزهر حينئذ يقولون فى صخب : إنّ بعض الكبار من علماء الأزهر ينتقلون إلى رضوان الله فلا يخصّهم الأستاذ وجدى بنفى ضايف كما فعل مع صاحب الأهرام ، فابتسم الشيخ الأكبر وقال لمحاوره : أمعك مقال الأستاذ وجدى ؟ قال : نعم . قال : سلّم فاقرأ ، فأخذ الشيخ يتلّو المقال منفعلاً ، وكان الشيخ الأكبر قد قرأه من قبل ، حتّى إذا بلغ القارئ منتصف القول وهو فى قمة انفعاله ، قال له الشيخ سأقرأ أنا ، ثم أخذ المجلة ليتلّو فى جمال نبرة ، وحسن إلقاء ، قول الأستاذ وجدى :

« إنّ الأزهر ومجلته لتشارك الأمة فى أساها ، وتذكّر من فضائل الفقيد الكبير ما كان يُقابل به بحوث حضرات العلماء من الاحترام ، ويُحلّها فى أرفع مكانة من الأهرام ، ولطالما نشر مقالات فى موضوعات علمية بحثة كان أولى بها المجلات ، ولكنّه كان يؤثّر أن يكون عوناً للأزهر فى أداء رسالته ، وفى عهده الجديد ، ومما يدلّ على عنايته بهذه الناحية ، أنّه عندما ثار جدال بين القائلين بجواز ترجمة القرآن والذاهبين إلى تحريمها ، وانتصر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراعى للقائلين بالجواز ، نشر الأهرام بحثه فى عدد واحد على طوله ،

ولم يكن فضيلته شيخاً للأزهر إذ ذاك ، فهذه النزعة الشريفة مضافةً إلى الكثير من غيرها لا يصح أن تُترك دون تقدير وإعجاب فلا غرو أن عُدتْ خسارة الآراء الحكيمة بموته فادحةً ، أحسنَ الله عزاء أسرته ، وجعل من نجله خلفاً جديراً بسلفه العظيم .

ثم قال الأستاذ متسائلاً : أفهتُم مرمى الجملة الأخيرة ؟! إن الأستاذ وجدى يعرف أن الأهرام أقوى صحف العالم العربى ، وأوسعها انتشاراً ، ويخاف أن تتخلى عن طريقة صاحبها الراحل في تشجيع المباحث الإسلامية ، فأشار إلى الخلف باحتذاء السلف ! فلو لم يكن له في مقال غير هذا التوجيه لكان جديراً بالثناء لا بالانتقاد !.

تراجع المعارض قليلاً ثم سأل : ولماذا لا يكتب الأستاذ وجدى عن الراحلين من العلماء الأزهريين كما كتب عن صاحب الأهرام ؟

فردّ الشيخ يقول : من الدارسُ الخبير لهؤلاء ؟ أنتم أم الأستاذ وجدى ! لقد سكّتم فلم تكتبوا شيئاً وأنتم زملاء وأصدقاء ، وأولو خبرٍ بالقوم ؟ أيلامُ الأستاذ وجدى إن سكّت عن قوم لا يكادُ يعرف عنهم شيئاً ؟ ولأثلامون وأنتم تعرفون كلّ شيء ثم تقصّرون ! كنّ أفهم أن يقول أحدكم ، كتبُ مقالاً في تاريخ فلان رحمه الله ثم حالت المجلة دون نشره ! هنا يجب أن نسأل ، وأعرف لِمَ حُجِبَ المقال ؟ أما أن نلوم رجلاً محدود الاتصال بالعلماء لأنه لم يكتب عنهم ، ولا نلوم أنفسنا فكثير ...

وأراد الإمام المراعى أن يغيّر وجهة النقد الصائب ، فقال : لقد نشر فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون مقالاً ممتازاً بالجريدة اليومية عن صاحب الأهرام ، وذكر فيه أكثر ممّا ذكر الأستاذ وجدى ، فلماذا لا تعرّضون عليه إذن ؟ لقد صادف مقال الأستاذ أبى العيون ارتياحى لأنه ينحّو منحى مقال الأستاذ وجدى ، فهل لديكم ما تقولون ؟! وانتهى المجلس بالاعتذار .

هذا قليلٌ من كثير أعلمه عن الرجل الكبير ، وقد تحدّثت عنه بعد رحيله في مناسبات كثيرة ، ولا أزال أهش فرحاً بالكتابة عنه ، لأنه في دنيا الخلق الرفيع مثالٌ يحتذى ، ونحن نرى كثيرين يفهمون الأصول الصحيحة للأخلاق الرفيعة ويتحدّثون عنها في خطب رنانة ، ومقالات دورية ، ولكنهم لا يلتزمون بكثير مما

يتحدثون ، فإذا رأينا بين مَنْ نعرف مَنْ يلتزم بما يقولُ تطبيقاً مهما عاذَ عليه قولُ الحق بالمضايقةِ المرهقة لدى من يحترفون الدسائس والمضايقات ، فإننا نفرح كل الفرح حين نجد المثل المنشود لإنساناً كريماً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، رحمه الله ...

د . محمد رجب اليومي